الفصل الثاني

الاقتصاد العالمي مع نهاية الألفية الأولى

THE WORLD ECONOMY AT THE TURN OF THE FIRST MILLENNIUM

قسّم الفصل الأول اليابسة الأفريقية-الأوراسية إلى سبع مناطق عالمية بناءً على مزيج من السمات الجغرافية والسياسية والثقافية، وقدم ملخصاً للتطور التاريخي والمؤسسي لكل منها حتى نحو العام ١٠٠٠. يتناول الفصل الحالي طبيعة الصلات الاقتصادية وغيرها من التبادلات بين هذه المناطق، أو على الأقل بعض أقسامها الفرعية التي دخلت في علاقات متبادلة. على أن هذه الصلات لم تقتصر على التجارة أو تبادل السلع، بل شملت أيضاً حركة الناس، مثل العبيد والتجار والحجاج والمرتزقة وغيرهم ممن دخلوا في تفاعل وتبادل ثقافي بالمعنى الأوسع للكلمة، ما أدى إلى انتشار الأفكار والتجديدات التقنية، فضلاً عن المعتقدات والممارسات الدينية[١].

لا بد أن القارئ قد لاحظ في الفصل الأول أن المنطقة الوحيدة، من بين المناطق السبع، التي شهدت اتصالات منتظمة ومباشرة مع المناطق الأخرى كافة، إضافة إلى أفريقيا جنوب الصحراء، كانت العالم الإسلامي في شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا. لقد تقاتل المسلمون والمسيحيون الكاثوليك الرومان الأوروبيون الغربيون وتاجروا معاً في إسبانيا وإيطاليا، وكذلك صقلية وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط. وانتزع المسلمون جزءاً من إمبراطوريتهم من البيزنطيين الأرثوذكس اليونانيين الأوروبيين

(١) يعتمد هذا الفصل في عدة مواضع على Findlay, 1998.

الشرقيين، وقضوا كل الأعوام التالية تقريباً في نزاع عسكري في هذه النقطة أو تلك على امتداد حدودهم الطويلة، بينما كانوا ينخرطون في الوقت نفسه في التجارة والعلاقات الدبلوماسية من أجل مصالحهم المتبادلة، إذ تبادل المسلمون الملح والمنسوجات مع الذهب القادم من غرب أفريقيا. وغزت الجيوش الإسلامية آسيا الوسطى وكان عليها أيضاً أن تصد هجمات غزاة السهل البدو، فيما كانوا في الوقت عينه ينفذون تجارة واسعة ونشاطاً دعوياً من جانب الصوفيين وغيرهم. وغزت الجيوش الإسلامية الهند، فيما استمرت تجارتهم الواسعة عبر كل من البر والبحر مع الهند، وعبر البحر مع جنوب شرق آسيا. وأخيراً، اشتبكت الجيوش الإسلامية وجيوش إمبراطورية تانغ الصينية في آسيا الوسطى في معركة نهر طلاس في العام ٧٥١، وأرسلت الخلافة عدة سفارات إلى عواصم تانغ، وكان للتجار المسلمين مستعمرات كبيرة في جنوب الصين، وفي مناطق أبعد إلى الشمال والشرق مثل كوريا. ليس مفاجئاً- إذن- أن الجغرافيين العرب والفرس كانوا أوسع الناس معرفة بظروف اليابسة الأفريقية-الأوراسية بأنحائها كافة في ذلك الزمان[١][٢].

كانت منطقة جنوب آسيا هي الأخرى على اتصال جيد بغيرها، أيضاً بفضل موقعها الجغرافي المتوسط نسبياً، وتصدير المنسوجات الهندية مباشرة إلى شرق وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى وأفريقيا جنوب الصحراء والعالم الإسلامي. وكانت آسيا الوسطى تقع في مكان متوسط، ولذلك كانت على اتصال وثيق مع كل المناطق الأخرى، ما عدا أوروبا الغربية وأفريقيا جنوب الصحراء وجنوب شرق آسيا. واجه بدو السهل بيزنطة وروسيا الكييفية عسكرياً، وكذلك تاجروا معهما على نطاق واسع، وانتقلت السلع الهندية وكذلك البوذية على طول طريق الحرير، وكانت الصين مصدراً دائماً للتأثير الثقافي والاقتصادي على قبائل آسيا الوسطى. وكان شرق آسيا وجنوب شرق آسيا على عِلم ببيزنطة، لكن لم يجريا معها تجارة ثنائية مباشرة ثابتة، أو تبادلاً ثقافياً مع أفريقيا جنوب الصحراء أو أوروبا الشرقية، أو مع أوروبا

(٢) انظر تحديداً خريطته (الشكل ١٢، ص ٧٩) "التي توضح الامتداد الجغرافي للحكم الإسلامي وتأثيره التجاري في القرن العاشر الميلادي"، بما في ذلك الانتشار الواسع للعملات الإسلامية.

الجدول رقم (٢,١) التدفقات التجارية الدولية في نحو العام ١٠٠٠.

إلى / من	أوروبا الغربية	أوروبا الشرقية	العالم الإسلامي	آسيا الوسطى	أفريقيا جنوب الصحراء	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	شرق آسيا
أوروبا الغربية	●	السيوف	العبيد السيوف	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ـــــ
أوروبا الشرقية	العبيد، الفراء، الفضة	●	العبيد، الفراء، الفضة	الفراء، السيوف	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ـــــ
العالم الإسلامي	الفلفل، التوابل، المنسوجات، الحرير، الفضة	المنسوجات، الفضة	●	المنسوجات	الملح، المنسوجات، المصنوعات، السيوف، الخيول	خيول الحرب	الذهب	التوابل
آسيا الوسطى	ـــــ	الفضة	الفلفل، الفضة، العبيد	●	ـــــ	الفضة، السلع المعاد تصديرها من الصين والعالم الإسلامي	ـــــ	الخيول
أفريقيا جنوب الصحراء	ـــــ	ـــــ	الذهب، العبيد، العاج، الأرز	ـــــ	●	الخشب، الحديد	ـــــ	ـــــ
جنوب آسيا	ـــــ	ـــــ	الفلفل، التوابل، الحرير، خشب الساج، المنسوجات	الفلفل، المنسوجات	المنسوجات	●	المنسوجات، الفلفل	المنسوجات
جنوب شرق آسيا	ـــــ	ـــــ	التوابل، العطور	ـــــ	ـــــ	الحرير، التوابل، خشب الساج، الأرز، الياقوت	●	العطور، التوابل خشب الصندل
شرق آسيا	ـــــ	ـــــ	الحرير، الخزف الصيني	الحرير، الشاي	ـــــ	الحرير، الخزف الصيني	الحرير، النحاس، العملات	●

الغربية بالتأكيد. فقد كانت أوروبا الغربية أكثر مناطق العالم انعزالاً في ذلك الوقت، تماماً كما كانت حال أفريقيا جنوب الصحراء، فكانت أوروبا الغربية على اتصال مباشر مع العالم الإسلامي وأوروبا الشرقية فقط، فيما كانت أفريقيا جنوب الصحراء تتصل بالعالم الإسلامي وجنوب آسيا فقط. بإيجاز، كان العالم الإسلامي على اتصال مع المناطق السبع الأخرى جميعها، وكان جنوب آسيا على اتصال مع خمس منها، وآسيا الوسطى وشرق آسيا على اتصال مع أربع، وجنوب شرق آسيا وأوروبا الشرقية على اتصال مع ثلاث، وأفريقيا جنوب الصحراء وأوروبا الغربية على اتصال مع اثنتين فقط.

يوجز الجدول رقم(٢,١) هذه العلاقات المتبادلة، إذ يقدم مصفوفة مبتكرة توضح التدفقات المباشرة الأساسية بين المناطق في نحو العام ١٠٠٠ ميلادية. ويعرض بقية الفصل ملخصاً لطبيعة هذه التدفقات. لكن قبل أن نبدأ، يجب أن نبرز الأهمية الكبيرة للجغرافيا في السردية التي يحكيها الفصل. فكما يوضح الشكل رقم (٢,١)، فإن أوراسيا تشكّل كتلة يابسة طويلة جداً تمتد عبر محور من الشرق إلى الغرب[٣]. تمتع جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا بهِبات مناخية وموارد مختلفة تماماً عن الصين وأوروبا، فيما تفردت الصين بحضارة قديمة ومتقدمة جداً أنتجت الشاي، وطورت صناعات متطورة جداً أنتجت سلع ترف من نوع الخزف والحرير. وكانت سهول آسيا الوسطى ذات الأراضي الوفيرة مصدراً للخيول، فيما كانت المناطق المتخلفة نسبياً في أوروبا وأفريقيا توفر العبيد والمعادن النفيسة.

لذلك يوجد أساس طبيعي للتجارة بين المناطق، بما في ذلك التجارة بين الشرق والغرب. بداية، وكما توضح الخريطة، كان هناك طريقان يربطان طرفي أوراسيا، الأول بري والثاني بحري. وكانت هناك مشكلات محددة ترتبط بكل طريق من الاثنين. ففي حال اختيار الطريق البري، كانت المشكلة الرئيسة التي يجب التغلب عليها تتمثل في توفير الأمن للتجار في أثناء عبورهم للامتدادات الشاسعة لآسيا الوسطى.

---

(٣) تعتمد هذه الخريطة على عدة مصادر، منها Abu-Lughod (1989) and Chaudhuri (1985).

الشكل رقم (٢,١) الطرق البرية والبحرية.

ومن الطبيعي أن يكون ذلك أسهل في إنجازه في حال وجود سيطرة سياسية مركزية على المنطقة، أو على الأقل في حال توسع الإمبراطوريات الصينية أو الشرق أوسطية أو الأوروبية في داخل آسيا الوسطى. وقد أقر المؤرخ الكبير إدوارد غيبون Edward Gibbon اعتماد التجارة على الأمن قبل أكثر من قرنين، حين كتب في معرض وصفه للتجارة الإيطالية في آسيا في فترة السلام المغولي أن "مياه نهر جيحون وبحر قزوين ونهري الفولغا والدون فتحت ممراً عزيزاً وعسيراً لمجوهرات الهند وتوابلها، فبعد مسيرة ثلاثة أشهر كانت قوافل خوارزم تقابل السفن الإيطالية في موانئ القرم....

لكن هذا النقل المائي أو البري كان ممكناً فقط حين كانت بلاد التتر موحدة تحت ملك حكيم وقوي"[٢].

ويقول فيليب كيرتن Philip Curtin إنه "في نقلة مفاجئة نسبياً، ظهرت بين نحو العام ٢٠٠ قبل الميلاد وبداية الحقبة المسيحية تجارة برية منتظمة عبر آسيا الوسطى من الصين إلى شرق البحر الأبيض المتوسط"، وكذلك انتشرت التجارة بين الهند والصين[٣]. أما تفسير التوقيت فيكمن في ظهور الصين القوية الموحدة في عهد دولة هان على أحد طرفي الطريق والإمبراطوريات الرومانية والفارسية على الطرف الآخر. ويذكر كيرتن أن المفتاح إلى الطريق البري كان يمر عبر صحراء تكلا مكان Takla Makan في مقاطعة شينجيانغ، التي أثنى قحطها قبائل السهل عن سكناها، لكنها وُهِبت سلسلة من الواحات وفرت الطعام والماء للتجار[٤]. ومن هناك كانت القوافل تستطيع أن تسافر غرباً إلى بلاد ما وراء النهر، ومنها تواصل السير غرباً إلى الإمبراطورية الرومانية، أو جنوباً إلى الهند.

كانت هناك مشكلتان رئيستان تعترضان الطريق البحري، الأولى مشكلة تقنية في طبيعتها تتعلق بالرياح الموسمية التي تهب من الجنوب الغربي في الصيف (تيّسر الرحلات من بلاد العرب أو شرق أفريقيا إلى الهند) ومن الشمال الشرقي في الشتاء عبر بحر العرب (تيّسر رحلة العودة). شجعت هذه الرياح أيضاً نمطاً موسمياً للإبحار إلى الشرق. وكانت المرحلة الثانية للرحلة البحرية من الهند إلى الملايو، والثالثة من الملايو أو إندونيسيا إلى الصين أو اليابان[٥]. شجعت هذه الطبيعة الموسمية التخصص في كل مرحلة من مراحل الرحلة، على الرغم من أن بعض التجار كانوا يقومون بالرحلة كاملة من بلاد العرب إلى الصين، كما أشرنا.

أما المشكلة الثانية في الطريق البحري فكانت سياسية في طبيعتها. فكما يتضح في الخريطة، يوجد عنقا زجاجة كان يتحتم التغلب عليهما إذا أريد نقل السلع بين الصين وأوروبا، الأولى هي شبه جزيرة الملايو والأرخبيل الإندونيسي، والثانية هي شبه الجزيرة العربية. وكانت السيطرة على أحد هذين العنقين تدّر أرباحاً احتكارية كبيرة، ولذلك ظهرت سلسلة من النظم في المنطقتين استخدمت القوة العسكرية لفرض

ضرائب كبيرة على التجارة. وحين كان الطريق البري يعمل، كانت عائداتهم تتراجع كثيراً، وحين كان يُقطَع بسبب عدم الاستقرار السياسي كانت عوائدهم ترتفع. وكان الوضع الجغرافي المحيطي[٤] لأوروبا الغربية، وتحديداً تطويق العالم الإسلامي لها، يعني خضوعها أكثر من غيرها لهذه الممارسات الاحتكارية. وكان امتداد أفريقيا من الشمال إلى الجنوب، ووقوعها في المكان الخاطئ من نقطة الاستشراف الأوروبية، يعني أن التقنيات الملاحية الأوروبية يجب أن تُطوّر كثيراً لكي يجدوا طريقاً حول عنق الزجاجة العربي.

سنبدأ بمناقشة حالة كل من الطرق البرية والبحرية مع منعطف الألفية، ونظراً لأن العالم الإسلامي كان يقع في مركز الاقتصاد العالمي، فمن المفيد أن نوجز أولاً علاقات العالم الإسلامي بكل المناطق الأخرى. ثم نتقدم بعد ذلك إلى وصف بعض أشكال العلاقات التجارية التي قامت على الطرف الشرقي لأوراسيا من خلال موشور تفاعلات إمبراطورية سونغ الصينية مع المناطق الأخرى. ويستكشف الفصل التالي التجارة عبر الطرق البحرية التي تربط الصين بجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، وينتهي الفصل برواية مطولة للتفاعلات بين العالم الإسلامي وأوروبا الغربية، إذ يعطينا الفرصة لتقديم عدة موضوعات ستظهر لاحقاً في هذا الكتاب.

العصر الذهبي للإسلام

وحَّدت الفتوحات العربية إبان القرن السابع وأوائل القرن الثامن- لأول مرة في التاريخ- عالم البحر الأبيض المتوسط لروما والإمبراطوريات القديمة من ناحية، وبلاد ما بين النهرين وإيران من ناحية أخرى. فإمبراطورية الإسكندر تفككت عند موته إلى مناطق متنافسة يقودها جنرالاته، ولم تصل الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية إلى نهر الفرات. فيما وحّد العرب الممتلكات البيزنطية في مصر وسوريا وفلسطين وشمال أفريقيا مع الأقاليم الساسانية في بلاد ما بين النهرين وإيران. ومدّ العرب حدودهم الشرقية إلى بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند. وبذلك فُتِح الطريق أمام حركة الناس

(٤) بمعنى كوْن أوروبا الغربية جزءاً من محيط الاقتصاد العالمي، وليس قلبه أو مركزه [المترجم].

والسلع والتقنيات والأفكار كي تتدفق شرقاً وغرباً في فضاء شاسع وحّده الإسلام واللغة العربية. صحيح أن اعتناق الإسلام حدث ببطء وأن الفرس والآراميين والأقباط والبربر لم يختفوا بين عشية وضحاها، لكن سرعان ما أصبحت اللغة العربية لغة الإدارة والقانون والتجارة فضلاً عن العقيدة الإسلامية في معظم المنطقة.

تجلى انفصال العالمين البيزنطي والساساني تماماً في الاختلاف في نظاميهما النقديين. فقد كانت العملة البيزنطية قاعدة أحادية المعدن من الذهب، هي الصلدس solidus أو النقد nomisma، كانت تزن ٤.٥٥ غراماً من الذهب تقريباً، بينما استخدم الساسانيون أيضاً معدناً واحداً، هو الفضة، وكانت الدراخما تزن نحو ٤.١٥ غراماً من الفضة. وعلى مدى العقود القليلة التالية للفتوحات العربية ظلت هذه العملات المعدنية تُتداول وتُسكّ كما في السابق، كل في منطقتها التابعة للخلافة. وفي أوائل العقد الأخير من القرن السابع أجرى الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) إصلاحاً نقدياً جذرياً باستبدال النظامين السابقين بقاعدة ثنائية المعدن، هما الدينار زنة ٤.٢٥ غراماً من الذهب تقريباً والدرهم زنة ٢.٩٧ غراماً من الفضة تقريباً، بنسبة تبادل رسمية قدرها عشرون درهماً للدينار الواحد، وهو ما يتضمن نسبة ذهب إلى فضة قدرها أربع عشرة إلى واحد للوزن نفسه من المعدن. وكانت العملات المعدنية الجديدة متفردة أيضاً في احتوائها على نقش، فلم تحتو تمثيلاً للملك أو المعبود كما كان معتاداً في السابق، وإنما تضرعاً إلى الله واسم الملك الحاكم وتاريخ ومكان سكّ العملة.

تجلى انصهار الإمبراطوريتين حينذاك في القاعدة ثنائية المعدن الجديدة التي حلت محل نظامي المعدن الواحد السابقين القائمين على الذهب والفضة. وكما سنرى لاحقاً، فقد استطاعت الخلافة أن تدعم الإصلاح النقدي باحتياطيات ضخمة من المعدنين الثمينين من خلال الإتاحة المتواصلة لإمدادات جديدة منهما. فقد استولى العرب، وفقاً لأحد التقديرات، على الخزانة الملكية الساسانية كاملة وقد احتوت تسعة بلايين دراخما، واستولوا على كميات ضخمة من قوالب الذهب والفضة من ولايتي مصر وسوريا البيزنطيتين السابقتين. ووصلوا أيضاً إلى مناجم الذهب في النوبة وغرب أفريقيا من خلال التجارة، وكانت مناجم الفضة في إيران وبلاد ما وراء النهر تحتوي وفرة من

رواسب هذا المعدن. واستطاع العالم الإسلامي من خلال السيطرة على هذه الموارد أن يحقق الاستقرار النقدي دون اللجوء إلى تقليل المعدن النفيس في العملة لأكثر من ثلاثة قرون، وعلى ذلك، فإن وصف هذا العصر بأنه "العصر الذهبي للإسلام" صحيح مجازياً وحرفياً أيضاً. ولذلك كانت العملات العربية، كما سنرى لاحقاً، محل تقدير كبير في العالم المسيحي.

كانت هذه العبارة التي استخدمناها عنواناً لهذا القسم، عنواناً لكتاب كلاسيكي لموريس لومبارد Maurice Lombard يقول فيه إنه "يمكن النظر إلى العالم الإسلامي على أنه سلسلة من الجزر الحضرية تربط بينها طرق تجارية"[٦]، وكانت إمدادات المعادن النفيسة بمثابة التزييت لحركة السلع وعوامل الإنتاج على طول هذه الدوائر. وكانت كل واحدة من هذه الجزر الحضرية "مركزاً له قوة شرائية" أو استهلاكية تعتمد على كل من الإنتاج المحلي وواردات السلع الاستهلاكية والمواد الأولية، أحياناً من مسافات طويلة. ظهر الدين الإسلامي في مكة المكرمة والمدينة المنورة الواقعتين في شبه الجزيرة العربية اللتين لا تزالان إلى اليوم أقدس مكانين للمسلمين. لكن كما رأينا، انتقلت العاصمة السياسة للدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق السورية في عهد الأمويين، ولاحقاً إلى بغداد في عهد العباسيين، ولم تعد بعد ذلك إلى شبه الجزيرة العربية. ومع سيطرة المسلمين على كل من البحر الأحمر والخليج العربي، فقدت تجارة القوافل عبر شبه الجزيرة مبررها الاقتصادي. وبقيت المدينتان المقدستان ملتقى ومقصد الحج السنوي الضخم من أنحاء العالم الإسلامي كافة، ولذلك كانت لهما أيضاً أهمية اقتصادية كبيرة. وكانت شبه الجزيرة العربية أيضاً سوقاً للتجارة في العبيد الأفارقة، وأصبحت المدينة مركزاً لتدريب العبيد على الأشكال الكلاسيكية من الموسيقى والرقص التي كانت منتشرة حينذاك في أنحاء العالم الإسلامي كافة. وثمة نشاط اقتصادي أساسي آخر هو تربية الخيول، حيث نتجت الخيول العربية الشهيرة عن تهجين السلالات البربرية والإيرانية في الظروف المناخية المثالية لهضبة نجد المرتفعة في شمال غرب شبه الجزيرة.

وفي بلاد ما بين النهرين، أسس العرب مدينتي الكوفة والبصرة كحاميتين عسكريتين محصنتين، ولاحقاً أُنشئت مدينة واسط بينهما. وسرعان ما ازدهرت البصرة نتيجة لاستصلاح الأراضي في الأهوار وبفضل التجارة عبر الخليج العربي، وقُدّر عدد سكانها إبان القرن التاسع بمئتي ألف نسمة، والكوفة بنحو ثلاثة أرباع هذا العدد[٧]. ربما أدت الثروة المتولدة في البصرة والكوفة إلى زيادة التوترات الاجتماعية، حيث ظهرت فيهما عدة فرق منشقة، وشهدتا ثورات عنيفة متكررة. وطّن الأمويون عدة قبائل عربية في مواقع إستراتيجية مختلفة في سوريا وبلاد ما بين النهرين لتقوية قبضتهم في هذه المناطق. وأدخلوا في الوقت نفسه زراعة محاصيل جديدة مهمة من الهند في بلاد ما بين النهرين وسوريا، وبخاصة الأرز وقصب السكر والقطن. وخُصّصت منطقة ما بين دجلة والفرات في بلاد ما بين النهرين العليا لزراعة القطن الذي كان يُنسَج ويُغزَل في المركز الصناعي بالموصل التي اشتق من اسمها اسم النسيج القطني المعروف بالموصلين muslin. وخُصّصت المنطقة المحيطة بتكريت الشهيرة بكونها مسقط رأس كل من صلاح الدين الأيوبي وصدام حسين للقمح والشعير ونخيل البلح. وكان الجزء الجنوبي الشرقي من بلاد ما بين النهرين الدنيا، وهو المنطقة المعروفة باسم خوزستان، مغطى بزارعات قصب سكر واسعة قام على رعايتها عبيد سود من شرق أفريقيا كانوا يعرفون باسم الزنج، وهو اقتران سبق نظيره المعروف في العالم الجديد[٥]. وقد قام هؤلاء العبيد بثورة هائلة إبان القرن التاسع، ونهبوا البصرة، وهددوا وجود الخلافة العباسية ذاتها لأربعة عشر عاماً، قبل أن يُهزَموا أخيراً في العام ٨٨٣.

تتجلى أهمية التجارة في العالم الإسلامي في اختيار موقع العاصمة العباسية بغداد التي شُيّدت على نهر دجلة ورُبطت أيضاً بنهر الفرات بقناة لنقل البضائع من البحر الأبيض المتوسط وسوريا بسهولة مع اتجاه التيار، ونقل الواردات من الهند وجنوب شرق آسيا في عكس اتجاه التيار من الخليج العربي عبر البصرة. وقد شُيّدت المدينة وفقاً لمخطط دائري وزودت بطرق رئيسة متقاطعة تؤدي إلى أربعة أبواب. كان الباب الشمالي الشرقي يؤدي إلى إيران وبلاد ما وراء النهر، والباب الشمالي الغربي

(٥) أي الاقتران بين العبيد الأفارقة ومزارع قصب السكر الذي سينتقل لاحقاً إلى العالم الجديد [المترجم].

إلى سوريا، والباب الجنوبي الشرقي إلى بلاد ما بين النهرين الدنيا، والباب الجنوبي الغربي إلى بلاد العرب ومصر. جاء سكان بغداد من مختلف أنحاء الإمبراطورية وتكاثروا سريعاً مع زيادة الثروة والعائدات المتدفقة من كل الأنحاء. ويقال إن عدد سكان بغداد بلغ زهاء مليوني نسمة في أوج المدينة، وهي مبالغة بالتأكيد، لكنه ربما وصل إلى نصف مليون نسمة، وهو أيضاً عدد ضخم بالنسبة إلى مناطق العالم الأخرى في ذلك الوقت. أما بالنسبة إلى حُماة العباسيين والأوصياء عليهم، وهم البويهيون، فإن ازدهار فارس لم ينتج عن الزراعة المزدهرة وحسب، بل أيضاً عن التجارة مع الشرق الأقصى عبر ميناء سيراف[٦] على الخليج العربي الذي ازدهر بعد أفول نجم البصرة.

كانت مدن إيران وبلاد ما وراء النهر دائماً محطات على طرق القوافل الرئيسة عبر خراسان نحو الصين والهند إلى الشرق (انظر الشكل رقم٢.٢). ويشير لومبارد إلى أن الطريق الشرقي الرئيس كان يمتد من بغداد إلى همدان، ثم الرَّي، ثم نيسابور، قبل أن ينعطف إلى الشمال الشرقي إلى مرو، ثم بخارى، ثم سمرقند، ثم طشقند، ثم طلاس، قبل أن يدخل الصين[٨]. وثمة فرع لهذا الطريق بين سمرقند وطشقند يسير إلى فرغانة، ثم كاشغر[٧] ثم ياركند[٨]. ومن نيسابور يمتد طريق آخر باتجاه الشرق إلى بلخ، ومنها إلى كابول ثم إلى الهند، أو ينعطف غرباً إلى قندهار وهرات. وكانت هناك أيضاً طرق تسير إلى الجنوب الشرقي من نيسابور وهرات إلى سيراف وهرمز على الخليج العربي. وكان حيوان الحَمل الرئيس بهذه القوافل التي قارب حجمها دائماً حجم مدن صغيرة متحركة هو الجمل ذو السنامين، ذلك الحيوان القوي والمطيع الذي يُربى أيضاً في هذه المنطقة. وكانت صيانة هذه الطرق والإشراف عليها مسؤولية صاحب البريد أو المدير العام للبريد،

---

(٦) سيراف Seraf أو صيراف أو بندر السيراف (بندر تعني ميناء في اللغة الفارسية) ميناء قديم في محافظة بوشهر بجنوب إيران [المترجم].

(٧) راجع حاشية سابقة حول مدينة كاشغر [المترجم].

(٨) ياركند Yarkand مقاطعة في تركستان الشرقية أو ولاية شينجيانغ أويغور الصينية [المترجم].

وهي وظيفة شغلها إبان أواخر القرن التاسع الجغرافي العظيم ابن خرداذبة[٩]. وكانت التجارة في معظمها تنقلها الشعوب الإيرانية المحلية: السغديون مع الصين، والخوارزميون مع آسيا الوسطى.

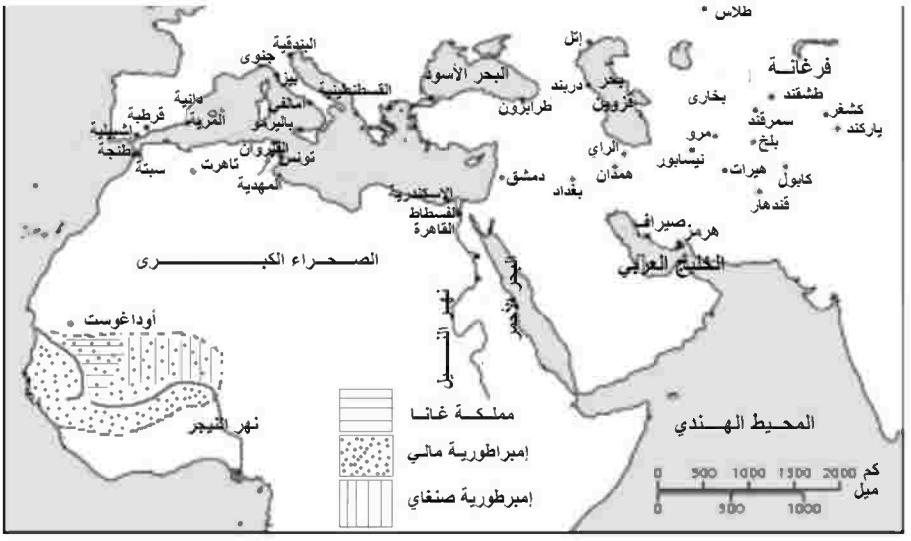

الشكل رقم (٢,٢) العصر الذهبي للإسلام.

كانت هذه المدن ذات بنية ثنائية مثيرة، إذ تعايش فيها معسكر الجيش العربي المعروف باسم الرباط، ملحقاً به مسجداً وأسواقاً، وبجانبه الشهرستان الفارسي الأصلي ذو أربعة أبواب أو المدينة المسوّرة، في إشارة إلى انصهار الثقافتين الذي شهده ذلك العالم. وإضافة إلى العرب والإيرانيين، لا يفوتنا التنويه إلى الحضور العسكري للأتراك الذين آلت إليهم السيادة لاحقاً. كانت هذه المدن في أغلبها تقع في واحات ذات نظم ري متطورة تدعم زراعة أراضي الخضر للسوق والمحاصيل لإطعام السكان. ونتيجة لغارات البدو المتكررة، كانت هذه المستوطنات جميعها تحاط كاملة بأسوار وتحصينات. وكان السكان الحضريون يتألفون من البلاط والجيش والموظفين، إلى

(٩) أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبة (٨٢٠- ٩١٢) مؤرخ وجغرافي اشتهر بكتابه الجغرافي "كتاب المسالك والممالك" الذي وصف فيه المسافات بين البلدان، عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون [المترجم].

جانب علماء الدين وملاك الأراضي الغائبين[١٠]، فضلاً بالطبع عما تحتاجه المدن من حرفيين وعمال خدمات. وعلى الرغم من ندرة تقديرات السكان وعدم موثوقيتها، يذهب بارتهولد Barthold إلى أن سمرقند ربما كانت تضم نصف مليون نسمة، ويذكر واطسون Watson تقديرات لسكان نيسابور تتراوح بين مئة ألف وخمسمائة ألف نسمة[٩].

وفيما يتعلق بالصناعة، كانت المدن جميعها تزاول العديد من الحرف، وربما كانت صناعة الورق في سمرقند أهم هذه الصناعات، يليها المنسوجات الحريرية والقطنية، ثم السجاد بالطبع الذي يقال إن أرمينيا كانت الرائدة في إنتاجه. ويذكر بارتهولد قائمة رائعة بكل من الصادرات الأولية والمصنعة والمواد المعاد تصديرها من النوعين للمدن المختلفة بالدولة السامانية، ومنها الورق من سمرقند الذي حل كلياً محل البرشمان في العالم الإسلامي مع نهاية القرن العاشر. وكانت التجارة مع بدو السهل نشطة جداً، حيث كانت المدن تبيعهم صناعات المنسوجات المحلية في مقابل الحصول منهم على الحيوانات والمنتجات الحيوانية. وقد فُرِضت رسوم جمركية محددة قدرها درهمان على كل حمل بعير، وهو مبلغ زهيد إذا علمنا أن الأجر الشهري للعامل غير الماهر كان خمسة عشر درهماً.

وحين نولي وجهنا شطر أفريقيا، نجد أن مصر "هبة النيل" كانت سلة الغلال للخلافة الإسلامية، تماماً كما كانت بالنسبة لخلفاء الإسكندر والرومان والبيزنطيين من بعدهم. كان المحصول الأهم بعد القمح هو الكتان الذي كان الأساس لصناعة الكتان المزدهرة. ووفر نبات البردي الذي كان ينمو في النيل المادة الخام لصناعة قديمة أساسية أخرى هي ورق البردي، فضلاً عن زراعة قصب السكر الواسعة. ويذكر لومبارد مورداً رئيساً آخر قدمته مصر لنفع حكامها هو الوصول إلى مصادر الذهب، ليس من المناجم النوبية فقط، وإنما للغرابة من قبور الفراعنة أيضاً. كما أن معظم الذهب القادم من غرب أفريقيا كان يشق طريقه إلى مصر عبر طرق القوافل القديمة.

---

(١٠) مالك الأرض الغائب هو الشخص الذي يملك أرضاً في الريف، لكنه يعيش بعيداً عنها في الحضر، وتقتصر علاقته بها على تحصيل الإيجار أو الحصول على حصته من المحصول [المترجم].

كان ميناء تونس في عهد الفاطميين محور تجارة البحر الأبيض المتوسط لكل من الشرق والغرب بفضل موقعه المتوسط. وإلى الغرب من تونس استولى الفاطميون على تاهرت Tahart تلك العاصمة الغنية للرستميين[١١] الإيرانيين التي كانت تقع على تقاطع طرق التجارة الممتدة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب. وكان الهدف الرئيس للفاطميين هنا هو السيطرة على النهايات الشمالية لطرق التجارة العابرة للصحراء التي تبادلوا عبرها الملح والمنسوجات والسلع المصنعة الأخرى مع الذهب والعبيد من بلاد السودان، أي "أرض السود"، في مملكة غانا بغرب أفريقيا عند ثنية النيجر[١٢]. وكان الطريق الرئيس يمتد بين مدن الواحات في سجلماسة بالمغرب وأوداغست فيما يعرف حالياً بموريتانيا. ويقدّر ديفيس Devisse الطلب من دور سكّ العملة الفاطمية على رواسب الذهب الخالص من بلاد السودان بنحو طن سنوياً، أو ثلاثة أطنان على الأكثر، وذلك الكم كان يحتاج من ثلاثين إلى أربعين حمل بعير، مع أخذ الطلب الإضافي في الاعتبار[١٠]. ونظراً لأن عدد البعران التي كانت تغادر سجلماسة سنوياً إلى أوداغست كانت عادة أكبر من ذلك التقدير بكثير، فإن السؤال الذي يطرح نفسه يتعلق بمصير البعران الزائدة في طريق العودة أو نوع الحمولة التي ربما كانت تحملها، وهي أسئلة لا تزال في حاجة إلى إجابات واضحة. ويقول ديفيس أيضاً إن الآلاف من المناجم الصغيرة كانت تُحفَر سنوياً بالتأكيد في مملكة غانا لإنتاج هذه الكمية من الذهب، التي كانت تتطلب قوة عمل كبيرة جداً، مؤكد أنها كانت من العبيد.

كانت هذه التجارة مربحة جداً ويبدو أنها جذبت تجاراً من جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى من مناطق بعيدة مثل بغداد وإيران وبلاد ما وراء النهر. وتتوفر

---

(١١) الرستميون سلالة من الأباضية حكمت بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر) بين العامين ٧٧٦ و٩٠٩ ميلادية، كانت عاصمتهم مدينة تاهرت أو تيهرت بالجزائر التي تسمى تيارت حالياً [المترجم].

(١٢) إننا نعتمد في سرديتنا الموجزة للصلات الاقتصادية بين العالم الإسلامي وأفريقيا جنوب الصحراء في هذه الفقرات وما يليها على Oliver and Page and Hrbek (1992). انظر أيضاً الخرائط والمناقشة المفيدة جداً الواردة في O'Brien (2002, pp. 80-81).

إشارات إلى المبالغ المستخدمة فيها في رواية الجغرافي من القرن العاشر ابن حوقل[١٣] الذي يذكر أنه رأى في أوداغست "صكاً" Sakk، وهي الكلمة التي ترجمها ليبر Lieber إلى "حوالة"[١١]، بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار، وهو أكبر مبلغ رآه ابن حوقل في كل الوثائق على امتداد العالم الإسلامي[١٤]. وكانت الأرباح الضخمة أمراً شائعاً، بالنظر إلى أن الذهب، كما يذكر الكُتاب العرب، كان رخيصاً جداً في بلاد المنبع، التي كان يُبادَل فيها مع الملح، بوزن الملح ذهباً. قد ينطوي ذلك على شيء من المبالغة، لكن شروط التبادل التجاري كانت بالتأكيد مواتية جداً لأولئك المستعدين لخوض غمار الرحلة إلى الجنوب.

على أن هذه الأرباح العالية لم تكن تأتي بلا ثمن. فحكام إمبراطوريات جنوب الصحراء في غانا ومالي وصنغاي[١٥] فرضوا ضرائب على التجارة، وكذلك القبائل الصحراوية مثل الطوارق الذين سيطروا على الطرق العابرة للصحراء. والفاطميون بدورهم فرضوا ضرائب على الذهب قبل تصديره إلى إسبانيا وصقلية والمدن المسيحية بشبه الجزيرة الإيطالية، فضلاً عن استخدامهم له في سكّ الدنانير. وإلى جانب هذه العائدات، كان الفاطميون يصدّرون موادّ مصنعة مثل المنسوجات والخزف والزجاج، إضافة إلى تصدير الخيول إلى بقية العالم الإسلامي، وكذلك إلى أفريقيا جنوب الصحراء.

كانت تجارة العبيد حلقة الوصل الاقتصادية الأساسية الأخرى بين العالم الإسلامي وأفريقيا جنوب الصحراء. ومن المعروف أن العبيد الأفارقة كانوا منتشرين في أراضي الشرق الأوسط قبل ظهور الإسلام. وبلال بن رباح المؤذن الأول للرسول،

---

(١٣) هو محمد أبوالقاسم بن حوقل (توفي نحو العام ٩٧٧ ميلادية) ولد في نصيبين ضمن حدود الدولة التركية الحالية، كاتب وجغرافي ورحالة وتاجر، من أشهر أعماله كتاب "صورة الأرض" [المترجم].

(١٤) من أجل تفاصيل أوفى حول التجارة العابرة للصحراء ووصف ابن حوقل لها، انظر مقالة لفيتزيون القيّمة (Levtzion, 1968).

(١٥) صنغاي أو سونغاي Songhai حضارة ومجموعة عرقية ولغوية تركزت حول نهر النيجر بغرب أفريقيا، كانت لها دولة، عاصمتها مدينة غاو، منذ القرن الحادي عشر، ولاحقاً صارت واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ الأفريقي [المترجم].

كان عبداً أسودَ أعتقه الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان هناك عبيد كثيرون، منهم قادة عسكريون بارزون في الفتوحات العربية الأولى، فضلاً عن الكثير من العبيد المعتقين الذين نبغوا في الشعر والموسيقى، كثير منهم من النساء. ومن المعروف أن محظيات الخلفاء الفاطميين مارسن نفوذاً كبيراً نيابة عن أبنائهن، مثل أم المستنصر (١٠٣٦-١٠٩٤)[١٦]. وكما فعل الخلفاء الفاطميون جميعاً، جنّد المستنصر جنداً سوداً في جيشه، بلغ عددهم في حالته خمسين ألفاً. وكان العبيد الأفارقة سلعة تجارية حتى في المناطق البعيدة جداً، فكان المرتزقة الأحباش المعروفون باسم الحبش يُستخدَمون على نطاق واسع في الهند، وكان الشباب الأفارقة من الجنسين عبيداً منزليين في جنوب شرق آسيا، وكان الحكام المحليون يقدمونهم أحياناً هدايا للأباطرة الصينيين. ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من التدفق الدائم للعبيد الأفارقة إلى الشرق الأوسط على مدى أكثر من ألف عام، لا توجد آثار لأحفادهم كجماعات منفصلة في أي مكان بالشرق الأوسط المعاصر، وهو ما يرجع بالتأكيد إلى التسامح الاجتماعي للعالم الإسلامي الذي تجسد في قدرته على استيعاب "الآخرين".

كان الذهب القادم من شرق أفريقيا، وكذلك العاج والبلور الصخري، تُصدّر من سلسلة من الموانئ التجارية على طول الساحل الشرقي مثل مقديشو ومومباسا وكيلوا[١٧]. وكان الامتداد الساحلي الذي تقع عليه هذه الموانئ وكثير من الموانئ الأخرى يمتد بطول ثلاثة آلاف كيلومتر ليصل جنوباً حتى موزنبيق، وأسماه مارك هورتن Mark Horton "الممر السواحلي"[١٢]. والسواحليون شعب أفريقي اعتنق الإسلام نتيجة للاتصال بالتجار العرب والفرس، واشتغل بالتجارة والملاحة الواسعتين على

---

(١٦) هو المستنصر بالله الفاطمي (حكم من ١٠٣٦ إلى ١٠٩٤م) الخليفة الفاطمي الثامن، شهد أول عصره ازدهاراً كبيراً، إلى أن توفى وزيره القوي أبو القاسم الجرجائي، فبدأت أم الخليفة تتدخل في شؤون الدولة، وصارت لها الكلمة الأولى في تعيين الوزراء، حتى أصبح يشار إليها باسم "الجهة الجليلة والستر الرفيع"، ما أدى إلى إزكاء نار الفتنة بين طوائف الجيش [المترجم].

(١٧) كيلوا Kilwa جزيرة في المحيط الهندي قبالة سواحل تنزانيا، كانت مركز سلطنة كيلوا أو الدولة الشيرازية التي أسسها في القرن العاشر علي بن الحسن الشيرازي، وضمّت في أوجها كل الساحل السواحلي، ثم آلت إلى دولة عربية حتى احتلال البرتغال لها في العام ١٥٠٥، وبعدها تمزقت إلى أجزاء، وقع كثير منها تحت وصاية سلطنة عُمان [المترجم].

طول الساحل الشرقي لأفريقيا. وأصبحت اللغة السواحلية لغة هجين تتكون من مفردات عربية رُكِبت على قاعدة من لغة البانتو[١٨]. والتحدر من المستعمرين الأوائل المعروفين باسم "الشيرازيين"، نسبة إلى بلدة شيراز الإيرانية التي كانت قاعدة سلطة البويهيين إبان القرنين العاشر والحادي عشر، منتشر في هذه المناطق. على أن هورتن وميدلتون Horton and Middleton يذهبان إلى أن الارتباط بمكان رفيع المستوى مثل شيراز كان ميلاً لدى الأفارقة الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام، أكثر منه إشارة إلى تحدر فعلي من سكان تلك المدينة[١٣]. ويذكر هورتن، تأسيساً على بحوث أثرية، أن المستوطنات الأولى التي تؤرخ للقرن الثامن كانت أفريقية بالكامل في طبيعتها، لكن بحلول القرن التاسع تتوفر أدلة واضحة على وجود نخبة إسلامية من السكان الأصليين. وكان التجار من سيراف على الخليج العربي يصدّرون العاج والعنبر القادم من هذه المنطقة إلى مناطق بعيدة كالصين، فيما كان العبيد والخشب يصدّران إلى الشرق الأوسط. وكان الحديد الخام المستخرج بالقرب من مومباسا يصدّر إلى الهند في شكل حديد مصبوب، وكشفت الاكتشافات الأثرية عن كميات كبيرة من الخزف الصيني والشرق الأوسطي على الساحل الشرقي لأفريقيا.

من الواضح أن هذه التجارة المتجهة إلى الخليج شهدت تراجعاً حاداً إبان أوائل القرن العاشر نتيجة لسقوط إمبراطورية تانغ وثورة الزنج في الخلافة العباسية. وبحلول النصف الثاني من القرن العاشر، ازدهرت تجارة شرق أفريقيا مجدداً، لكنها حينذاك أخذت تتجه نحو البحر الأحمر وغرباً إلى البحر الأبيض المتوسط بدلاً من الخليج العربي والصين. وقد وجد هورتن بنايات ومساجد حجرية بداية من العام ٩٥٠ فصاعداً، ظهرت بديلاً عن الأبنية الطينية السابقة، وهي إشارة إلى زيادة كبيرة في الازدهار. ولعل الأهم من ذلك هو اكتشافات العملات المعدنية، ومنها اكتشاف أكثر من ألفي عملة في موقع واحد يعود إلى القرن الحادي عشر. وكان

---

(١٨) لغات البانتو Bantu فرع من اللغات النيجيرية الكنغولية، تضم أكثر من خمسمئة لغة، تنتشر في وسط أفريقيا وشرقها وجنوبها، خاصة على الشريط السواحلي الشرقي [المترجم].

الذهب الذي يقدّر تدفقه السنوي بعشرين ألف أوقية[١٩] والعاج والبلور الصخري تأتي إلى السواحليين من خلال التجارة مع قبائل الداخل، في مقابل الملح والأصداف التي كانت تستخدم كعملة، والخرز الزجاجي وسلع تجارية أخرى. ويستشهد هورتن وميدلتون بجغرافي عربي يقول إن قبائل الداخل كانت تترك رؤساءها وكبراءها رهائن في مقابل السلع التجارية، وكان يُطلَق سراحهم بعد تسليم العاج الذي كانوا يأتون به من مناطق واقعة في أقصى الغرب مثل الحافات الشرقية لصحراء كلهاري[١٤]. ويرى هورتن أن العاج المستخدم في صنع الصندوق الرائع لابنة عبدالرحمن الثالث في قرطبة في نحو العام ٩٦٠، وكذلك الكنوز الفنية الإسلامية والبيزنطية والأوروبية الغربية القيّمة الأخرى، جاءت بالتأكيد من أنياب فيلة من شرق أفريقيا[١٥].

بعد غزو مصر، واصل الفاطميون اهتمامهم بالتجارة، ونجحوا- كما رأينا- في تحويل تجارة توابل المحيط الهندي من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. وتمكنوا بذلك من الوصول إلى أكبر مصدر للريع الاحتكاري في عالم القرون الوسطى، حيث تقاسموه مع العديد من الدول المدينية[٢٠] التجارية الصاعدة حديثاً في إيطاليا مثل أمالفي[٢١] وجنوى وبيزا والبندقية. وكان ميناء عيذاب[٢٢] على الساحل الغربي للبحر الأحمر هو المكان الذي تُفرّغ فيه السلع القادمة من المحيط الهندي، ثم تُرسَل بقوافل الجمال إلى المركز التجاري بمدينة قوص[٢٣] على رأس النيل بالقرب من أسوان، قبل أن تحملها السفن مع اتجاه التيار إلى القاهرة والإسكندرية، حيث كان الإيطاليون

---

(١٩) الأوقية وحدة وزن تساوي نحو ٢٨ غراماً [المترجم].

(٢٠) راجع حاشية سابقة حول معنى الدولة المدينية أو الدولة- المدينة city-state [المترجم].

(٢١) أمالفي Amalfi مدينة في إقليم كامبانيا الإيطالي على خليج ساليرنو، كانت عاصمة جمهورية أمالفي البحرية التي كانت قوة تجارية مهمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط بين العامين ٨٣٩ و ١٢٠٠ [المترجم].

(٢٢) عيذاب ميناء علي ساحل ولاية البحر الأحمر السودانية، علي بعد ثلاثة وثلاثين كيلومتراً من ميناء بورسودان، لعب دوراً رئيساً في دخول الإسلام إلى السودان منذ خلافة أبي بكر وعمر، ويرتبط بطرق مواصلات مباشرة بوسط السودان وشرقه، كان مخرجاً لمنتجات مناجم الذهب من أفريقيا [المترجم].

(٢٣) قوص مدينة ومركز بمحافظة قنا المصرية، تقع على الضفة الشرقية للنيل جنوب القاهرة بنحو ٦٤٥ كيلومتراً [المترجم].

والتجار المحليون يشترونها للتصدير. وكانت الإسكندرية مدينة مزدهرة تضم ميناءين، واحداً للسفن المسيحية وآخر للسفن الإسلامية.

تمتعت مصر الفاطمية بمزايا اقتصادية أخرى إلى جانب السيطرة على طرق تجارة المسافات الطويلة. كانت جزية الحبوب السنوية المعروفة باسم أنونا[٢٤] تذهب منذ قرون إلى روما أولاً، وبعد ذلك إلى القسطنطينية. وفي عهد الخلافة، ذهبت أولاً إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولاحقاً إلى دمشق، ثم إلى بغداد في عهد العباسيين. لكنها في عهد الفاطميين بقيت في مصر، ما أعطى دفعة قوية للاقتصاد المحلي. ربما أدى وقف صادرات الحبوب إلى دفع الاقتصاد المصري بتشجيع إنتاج سلع أخرى مثل الكتان وقصب السكر التي كانت محاصيل نقدية رئيسة، فضلاً عن كونها موادَّ خاماً للقطاعين الصناعيين الرئيسين: الكتان وتكرير السكر. وكانت الحبوب تنتج أيضاً في صقلية التي كانت في أيدي الفاطميين في ذلك الوقت، وكانت الحبوب الصقلية تُصدّر لإطعام مدن إفريقية.

كان إنتاج الكتان عالي الجودة المطرز بالخيوط الذهبية والفضية للبلاطات الحاكمة وكهدايا للوجهاء المحليين والملوك الأجانب، يحدث في ورش حكومية تسمى طراز[٢٥]، وأيضاً في مصانع خاصة، وكان منتجاً تصديرياً رئيساً في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط، وحتى مناطق بعيدة كالصين. وتذكر فرانتز مورفي Frantz-Murphy أن قطاع الكتان كان القطاع الرئيس في الاقتصاد المصري من عهد الدولة الطولونية إلى الدولة الفاطمية[١٦]. وتقول إن هذا القطاع كان مخزناً للقيمة وأصلاً للثروة في خزائن النخبة الذين كانوا ينتجون الكتان في ضياعهم. ولذلك وُجِد أن ابن كلس[٢٦] كان يمتلك عند وفاته في العام ٩٩١ ما قيمته خمسمائة ألف دينار من المنسوجات الفاخرة، فضلاً عن استثمار مئة وستين ألف دينار أخرى في الصناعة. ويذكر أشتور أن تكرير السكر في زمن الفاطميين كان صناعة كثيفة في رأس المال وتستخدم تقنية متقدمة جداً

---

(٢٤) أنونا Anona عند الرومان هي الإلهة جامعة حبوب العالم إلى روما [المترجم].

(٢٥) طراز Tiraz هو اسم المُنتَج أيضاً الذي سمي بذلك لأن منسوجات الكتان كانت تزخرف بكتابات مطرزة [المترجم].

(٢٦) راجع حاشية سابقة للمترجم حول ابن كلس [المترجم].

وتنتج للاستهلاك المحلي والتصدير، وكذلك صناعة الورق التي كانت قطاعاً مهماً آخر. وإضافة إلى الصادرات المصنعة ونقل التوابل الشرقية، صدّر الفاطميون أيضاً موادَّ أولية صناعية مثل القطن والشب إلى صناعات المنسوجات الناشئة في إيطاليا. واتخذ ثمن هذه الصادرات شكل بعض الواردات المصنعة مثل الأقمشة الصوفية، لكنه حدث في الغالب الأعم في مقابل الفضة التي كان يعاد تصديرها إلى الشرق لدفع ثمن الفلفل والتوابل الأخرى.

تمكّن الفاطميون من خلال سيطرتهم على وصول آمن إلى إمدادات الذهب بغرب أفريقيا والبحر الأحمر من الاحتفاظ بجيش قوي من الجنود البربر والأتراك والنوبيين، فضلاً عن بلاط رائع. كما استعملوا الأقباط واليهود كإداريين ومستشارين ماليين، واتبعوا سياسة اقتصادية ثابتة وعقلانية جداً. فعلى الرغم من أنهم أقاموا مصانع مَلكية ضخمة للمنسوجات الفاخرة وبعض السلع الأخرى وسيطروا على التجارة في مواد إستراتيجية مثل الحديد والخشب والقار، يؤكد أشتور على اتساع نطاق الاقتصاد الحر الذي سمحوا به في التجارة والصناعة[١٧]. وكانت الكفاءة الإدارية والسياسة الاقتصادية للفاطميين عالية جداً لدرجة أن غويتن Goitein يتحدث عن "معجزة الفاطميين" التي يعزوها إلى العوامل السابقة، إضافة إلى التجارة مع أوروبا الغربية المزدهرة[١٨].

على أن هذه السياسة الاقتصادية التي وصفها غويتن وآخرون بأنها اعتمدت على الحرية الاقتصادية وانخفاض الرسوم الجمركية وحرية انتقال البضائع والناس ورأس المال، تحتاج إلى تفسير متأن. وفي دراسة حالة قيّمة للعلاقات غير الرسمية المفيدة للطرفين بين أمير أو قائد عسكري مجهول من الإسكندرية وتاجر يهودي، يستنتج أودوفيتش Udovitch أنه في حين كان بوسع التاجر في الدول المدينية الإيطالية أن يقول L'etat c'est moi [الدولة أنا]، لم يكن بوسع التاجر في مصر الفاطمية إلا أن يقول L'etat n'est pas contre moi [الدولة ليست ضدي][١٩]. وكما يوضح مايكل بريت Michael Brett، فإن أعضاء البلاط والسلالة المالكة، بما في ذلك كبار القادة المدنيين والعسكريين، كانوا يُكافَئون بامتيازات عديدة، مثل حق الشراء الأول والإعفاء من

الضرائب، ما جعل الأسواق تعمل لصالحهم على حساب أقل التجار حظوة، ناهيك عن عامة الناس[٢٠]. ويدفع شعبان بأن هذه الحرية الاقتصادية ربما جعلت الفاطميين يهملون صيانة البنية التحتية الزراعية التي كانت تتطلب عادة من ثلث إلى ربع الدخل السنوي[٢١].

وتأسيساً على ذلك كله، يبدو أن ما حدث هو أن هذه السياسات المستنيرة عموماً جلبت ثروة ضخمة، انعكست في الترف الهائل الذي عزاه المراقبون جميعاً إلى الفسطاط- القاهرة في عهد الفاطميين، من الجغرافيين العرب ابن حوقل والمقدسي(٢٧) والإدريسي(٢٨)، إلى الرحالة الفارسي ناصر خسرو(٢٩) والمؤرخ الفرنسي للحملات الصليبية وليام الصوري(٣٠). ولم تقتصر روعة الأبنية العامة على القصور، وإنما انعكست أيضاً في الجامع والمعهد العظيم المسمى بالأزهر ومكتبة عامة سميت دار الحكمة ضمت آلاف الكتب حول الأديان والموضوعات غير الدينية، وكانت أبوابها مفتوحة للناس جميعاً، وكانت توفر الورق والأقلام والحبر لأي شخص يريد النسخ. وكانت البيوت تتكون من ستة أو سبعة طوابق، إلى أربعة عشر طابقاً(٣١)، ويسكن في البيت الواحد نحو مئتي شخص أو أكثر[٢٢].

---

(٢٧) محمد بن أحمد المقدسي البشاري (من نحو العام ٩٤٦ إلى نحو العام ١٠٠٠ ميلادية) جغرافي ورحالة ومؤلف عربي من أهم مؤلفاته "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي يعد من أشهر الموسوعات الجغرافية للأقاليم الإسلامية بأمصارها وأنهارها وبحارها وشعوبها وثقافاتها [المترجم].

(٢٨) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الشريفي الإدريسي (من العام ١١٠٠ إلى العام ١١٦٦ ميلادية) من أعظم الجغرافيين في التاريخ وأحد مؤسسي علم الجغرافيا، من أهم مؤلفاته الكتاب الشهير "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي يعتبر من أشهر الآثار الجغرافية العربية [المترجم].

(٢٩) أبو معين ناصر بن خسرو بن حارث القباذياني البلخي (من نحو العام ١٠٠٣ إلى نحو العام ١٠٨٨ ميلادية) رحالة وشاعر فارسي، من مؤلفاته "كتاب الأسفار" أو "السفرنامة" الذي دوّن فيه أخبار أسفاره في أرجاء العالم الإسلامي [المترجم].

(٣٠) وليام الصوري (من العام ١١٣٠ إلى ٢٩ سبتمبر ١١٨٥ ميلادية) رئيس أساقفة صور ومؤرخ صليبي عاش في صور والقدس، عُيّن في العام ١١٧٤ مستشاراً للملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، له مؤلفات في التاريخ واللاهوت [المترجم].

(٣١) من المؤكد أن هذا العدد لطوابق المنازل كبير جداً على عصور لم تعرف مواد البناء الحديثة! [المترجم].

يقدّر عدد سكان الفسطاط–القاهرة بنحو خمسمئة أو ستمئة ألف نسمة في منتصف القرن الرابع عشر[٢٣]، ومن المعقول تماماً أنها كانت أكبر في عهد الفاطميين. ومن المعتقد أن الجيش الدائم لابن طولون كان يتكون من أربعة وعشرين ألفاً من الغلمان الأتراك واثنين وأربعين ألفاً من النوبيين السود والعبيد السودانيين[٢٤]، ومن المعقول أن نقدّر عدد سكان الفسطاط بعشرة أضعاف هذا العدد على الأقل إبان أوائل القرن العاشر. ويوصف النقل النهري في النيل بأنه كان أكبر من نظيره في بغداد والبصرة مُجتمعتين، وذلك دليل واضح على ازدهار العاصمة المصرية. ولا يمكن لمدينة كبيرة أن تفلت من شكاوى التلوث، والقاهرة لم تكن استثناءً لذلك، إذ يحدثنا غاستن ويت Gaston Wiet عن طبيب يدعى ابن رضوان كان يشكو من الضباب الأسود الذي كان يغطي سماء المدينة، وبخاصة في الصيف، والغبار الذي كان يتخلل لحيته دائماً، والعادة السيئة المتمثلة في إلقاء الحيوانات النافقة في موارد ماء الشرب[٢٥][٣٢].

كان اقتصاد المناطق الغربية من شمال أفريقيا مرتبطاً بقوة باقتصاد الأندلس. وكانت القاعدة الاقتصادية للأندلس هي الزراعة المزدهرة التي ربما كانت الأكثر تنوعاً وتطوراً في زمانها من الناحية التقنية. وكما أوضح واطسون في دراسته الرائدة، فقد أحدثت الفتوحات العربية "ثورة خضراء" في الأراضي التي احتلوها نتيجة لنقل المحاصيل والنباتات من الهند وجنوب شرق آسيا غرباً إلى إيران والعراق وسوريا، ثم إلى المناطق الخاضعة لهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط[٢٦]. ونظراً لأن هذه المحاصيل والنباتات الشرقية كانت تزرع أصلاً في مناخ الرياح الموسمية وفير المطر، فإن زراعتها في المناخ الأكثر جفافاً بالعالم الإسلامي تطلبت تقنية ري معقدة. وهنا أثبت الميراث التقني لبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين القديمة فائدته،

(٣٢) وكأن ظاهرة إلقاء الحيوانات النافقة في المجاري المائية التي لا تزال موجودة إلى اليوم في مصر من جنوبها إلى شمالها ليست جديدة، بل ربما ترجع إلى عصور أقدم من الدولة الفاطمية، وحتى سحب الدخان التي تغطي سماء القاهرة في مواسم حرق قش الأزر في الحقول في الوقت الحاضر ليست ظاهرة جديدة هي الأخرى [المترجم].

ممثلاً في قنوات الري المحفورة تحت الأرض[٣٣] ونواعير رفع المياه. وقد أثمرت هذه التطورات كلها في الأندلس نظاماً زراعياً تكون توليفة إبداعية، يرى توماس كليك Thomas Click أنه "مزج ... الزراعة الهندية والتقنيات الهيدروليكية الرومانية والفارسية، ونظاماً قانونياً لتوزيع المياه أدمج عناصر من القواعد القبَلية العربية والبربرية، والقانون الإسلامي والقانون العرفي الريفي الروماني"[٢٧]. ويذكر ريلي Reilly أن القطن والموز أُدْخِلا إلى الأندلس إبان القرن التاسع، تلاهما الأرز والقمح الصَلب وقصب السكر والباذنجان والبطيخ إبان القرن العاشر، والذرة البيضاء والسبانخ إبان القرن الحادي عشر[٢٨]. وتضمنت الإضافات الجديدة المهمة الأخرى البرتقال والليمون وحمضيات أخرى، إضافة إلى أنواع جديدة من التين والبلح، أدخلتها في أغلب الأحيان الحدائق والبساتين المَلكية المملوكة للسلالة الحاكمة.

كانت علوم النبات والزراعة والبستنة متطورة جداً في الأندلس، إذ بُنيت على معارف العصر القديم الكلاسيكي إضافة إلى انتقال العلم الهندي في هذه الميادين. ويبدو أن العرب، ذلك الشعب الصحراوي في الأصل، كانوا شغوفين بالخضرة المرتبطة بالواحات والأشجار والنباتات والأزهار، كما يظهر كثيراً في أشعارهم. وقد أثرت هذه المحاصيل الجديدة أيضاً على توسيع الرقعة المزروعة من خلال التمكين من زراعة أكثر من محصول واحد في العام في حالات كثيرة. وارتفع أيضاً ناتج المحاصيل التقليدية مثل الزيتون والكرم، على الرغم من التحريم الإسلامي المعروف لتناول الكحول الذي يصنع من الكرم. ويبدو أن شرب النبيذ لم يكن غائباً تماماً في الأندلس، على الأقل بين النخبة الاجتماعية بالمدن.

ويبدو أيضاً أن التغيرات الاجتماعية التي رافقت الفتح العربي كانت مفيدة، حيث أفسحت مزارع العبيد التي ميّزت حقبتي الرومان والقوط الغربيين المجال للمزارعين المستأجرين أو المزارعين المحاصصين[٣٤]، وتلا ذلك إدخال ترتيبات أكثر

---

(٣٣) هذه القنوات التي عرفت بأسماء مختلفة منها "الفلج" في شبه الجزيرة العربية و"فجارة" في شمال أفريقيا و"قناة" في مصر وبلاد فارس، لم تكن تحفر تحت الأرض، بل كانت تحفر على سطح الأرض ثم تغطى بعد ذلك [المترجم].

(٣٤) المحاصص مزارع يستغل الأرض لمصلحة المالك مقابل حصة من المحصول [المترجم].

مرونة لاستخدام الأرض وحقوق ملكيتها. وكما يقول جايم فيسينز فايفز Jaime Vicens Vives، فإن "المزارعين الذين كانوا يفلحون الحقول كانوا أفضل حالاً تحت حكم العرب منهم تحت حكم القوط الغربيين"، على الرغم من أنهم كانوا ملزمين بالتخلي عن ثلث أو خمس محاصيلهم للطبقة الحاكمة الجديدة[٢٩]. وكان غالبية هؤلاء المزارعين من أبناء البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وأطلق عليهم اسم المولدين. أما من لم يدخلوا في الإسلام، الذين كانوا يسمون المستعربين، فكانوا يتألفون في غالبيتهم من طبقة الحرفيين في المدن. وارتبطت تربية قطعان كبيرة من الأغنام كانت تتنقل موسمياً بحثاً عن المرعى، باستيطان الجماعات القبَلية البربرية في الأندلس التي شكّلوا فيها غالبية المهاجرين المسلمين. وشكل المسلمون الشرقيون وهم أقل عدداً بكثير (العرب والسوريون) النخبة الأموية الحاكمة والأرستقراطية مالكة الأراضي. ولعبت الجماعة اليهودية الصغيرة دوراً في التجارة والإدارة أكبر كثيراً من حجمها، وذلك بفضل تعليمها وثقافتها وأصولها الشرقية التي مكّنتها من القيام بدور الوسيط الثقافي بين المسلمين والمسيحيين.

كان التعدين والصناعة متطورين أيضاً بدرجة كبيرة في الأندلس. فغدت المصنوعات الرئيسة، كالمنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية والقطنية التي كانت تستورد قديماً من الشرق، تُنتَج هناك وتُصدّر إلى الغرب المسيحي والشرق وشمال أفريقيا الإسلاميين. وأصبحت صناعة الورق من الصناعات المهمة في شاطبة، واكتسب الجلد القرطبي والفولاذ الطليطلي شهرة لم يفقداها أبداً. وكان النحاس والحديد والزئبق موادَّ أولية صناعية مهمة لها أسواق محلية وخارجية. وكان للخشب قيمة خاصة في العالم الإسلامي القاحل نسبياً والمحروم من الغابات، وقد لبى البلوط والصنوبر الإسبانيان للأثاث والسفن هذه الحاجة الملحة.

كانت إمارة قرطبة تعيش عصرها الذهبي إبان القرن العاشر الذي تميّز- كما رأينا- بإعلان عبدالرحمن الثالث الخلافة الأموية منافسة للخلافة العباسية والفاطمية. استولى الأمويون على سبتة في العام ٩٣١ وطنجة بعد ذلك بعشرين عاماً، وكذلك أجزاء أخرى من شمال أفريقيا، ودخلوا في أعمال عدائية مطولة مع الفاطميين

للسيطرة على منافذ التجارة العابرة للصحراء الكبرى. واستخدم الجانبان قبائل بربرية مختلفة وكلاءً عنهما، فاستخدم الفاطميون اتحاد صنهاجة، واستخدم الأمويون قبائل زناتة الواقعة إلى الغرب. ومكّن الوصول إلى إمدادات الذهب الجنوبية عبدالرحمن الثالث من إصدار عملته الذهبية بعد أن أعلن نفسه خليفة في العام ٩٢٩. واستخدم الجانبان قوتيهما البحرية الكبيرة لمهاجمة سواحل أحدهما الآخر. وعلى الرغم من هذه النزاعات، أكد التكامل الطبيعي للنظام الاقتصادي "الإسباني-المغاربي" نفسه، حيث ازدهرت التجارة عبر غرب البحر الأبيض المتوسط، وتضمنت تبادل المنتجات الزراعية الجنوبية مع الصناعات والخشب والمعادن الشمالية. واهتم الجانبان أيضاً بالقضاء على عمليات القرصنة التي دمرت تجارة البحر الأبيض المتوسط في الأزمان السابقة، لكنها تراجعت كثيراً بداية من القرن العاشر فصاعداً.

يقدّر بيدرو شالميتا Pedro Chalmeta، في عمله الكمي القيّم، عدد السكان الكلي للأندلس في هذه الفترة بأكثر قليلاً من عشرة ملايين نسمة (١٠.٣)، كان منهم مليون شخص يعيشون في الحضر الذي شكّلت قرطبة وحدها نصفه. ويقدّر شالميتا أيضاً ما يسميه "إجمالي إيرادات" البلاد ما بين ستة وثلاثين وأربعة وخمسين مليون دينار، كان ما بين ثلثها ونصفها يأتي من الضرائب التي يبدو أنها كانت عالية جداً بالتأكيد[٣٠]. ويقدّر فيسنز فايفز الدخل السنوي لعبدالرحمن الثالث بعشرين مليون دينار، وهو رقم يتفق مع تقديرات شالميتا[٣١]. وعلى ذلك، فإن إجمالي الدخل الفردي كان بين أربعة وخمسة دنانير. وعلى الرغم من صعوبة مقارنة ذلك التقدير بالمستويات الحالية، فإن شالميتا يؤكد أن "الأندلس كانت بالنسبة للممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية نوعاً من الموطن الأسطوري للثروة أو الأرض الموعودة"، وأن ثرواتها قدمت دوافع إضافية قوية للحماسة الدينية لعملية الاسترداد[٣٢][٣٥]. ويذكر ريلي أن

---

(٣٥) يثير الحدث التاريخي الواحد مشاعر متناقضة لدى الشعوب والجماعات المختلفة، ولذلك تجد للحدث الواحد أسماء أو ترجمات مختلفة، ومن أمثلة ذلك مصطلح Reconquista الذي يشير في اللغات الأوروبية إلى "استرداد" أيبيريا من المسلمين أو "إعادة فتحها"، على أساس أنها كانت أوروبية مسيحية قبل الفتح الإسلامي، في حين يترجمه العرب والمسلمون إلى "سقوط الأندلس"، مع ما يتضمنه ذلك من تأكيد على "عروبة" أو "إسلامية" الأندلس بعد القرون الثمانية التي كانت فيها جزءاً من العالم

الملوك المسيحيين الإسبان كانوا يُكفَنون في أنسجة أندلسية فاخرة، بينما كانت آثار القديسين توضع عادة في صناديق من العاج، وتُغطَى مذابح الكنائس بأنسجة كتانية، وجميعها كانت من منتجات الأندلس. وكانت العملات الإسلامية أو تقليدها منتشراً في البلاد المسيحية[٣٣].

كانت هذه المدن والمناطق بالعالم الإسلامي جميعها، من إسبانيا وشمال أفريقيا في الغرب إلى أفغانستان والهند في الشرق، على اتصال دائم ببعضها البعض، ولم تكن هناك أية قيود على التدفق الحر للناس والأفكار والتقنيات والأزياء والسلع ورأس المال، كما تثبت حياة وأعمال جغرافيين من أمثال ابن حوقل، على الرغم من النزاعات السياسية والحروب المتكررة بين الدول الإسلامية. وكان الحج بالطبع عاملاً توحيدياً رئيساً في هذا الخصوص، لكنه لم يكن العامل الوحيد على أية حال. فازدهار الفاطميين والأمويين في الغرب وتسامحهما أسهما في جذب أصحاب الطموح من الجنود والمفكرين والبيروقراطيين والشعراء والراقصين والمغنين وكثيرين غيرهم "لأن يتوجهوا غرباً ويزدهروا مع البلاد" على نحو يذكّرنا بهوريس جريلي[٣٦] وموقف متأخر جداً على التخوم الغربية[٣٧]. ومن الأمثلة المثيرة في هذا الخصوص الموسيقي الشهير زرياب (٧٨٩-٨٥٢)، وهو مُعتَق أسود بدا حياته المهنية المثيرة موسيقياً ومغنياً وشاعراً في البلاط العباسي ببغداد، قبل أن ينتقل إلى القيروان، ثم قرطبة التي مارس فيها تأثيراً ثقافياً كبيراً في الموسيقى، وكان كذلك مثالاً يحتذى للذوق والموضة. وتنسب إليه

الإسلامي وإحدى أبرز حواضره. ومن ذلك أيضاً مصطلح conquest الذي يترجمه المؤيدون للحدث إلى "فتح"، فيما يترجمه الكارهون له إلى "غزو" أو حتى "احتلال" [المترجم].

(٣٦) هوريس جريلي Horace Greeley (٣ فبراير ١٨١١ إلى ٢٩ نوفمبر ١٨٧٢) محرر صحفي أمريكي، من مؤسسي الحزب الجمهوري الليبرالي ومصلح وسياسي ومن أبرز خصوم العبودية، كان من أنصار السياسة الليبرالية في الاستيطان، وتنسب إليه النصيحة التي قدمها إلى قرائه: "توجهوا إلى الغرب وازدهروا مع البلاد" [المترجم].

(٣٧) يشير مصطلح التخوم الغربية Western frontier أو الغرب الأمريكي American frontier أو الغرب القديم أو الغرب البري إلى عملية التوسع الأمريكي غرباً، بما صحبها من بناء مجتمعات واستخدام الأراضي وتطوير الأسواق، في جو من الحرية السياسية والاقتصادية والتسامح الفكري والديني [المترجم].

إبداعات مذهلة بالنسبة إلى عصره مثل استخدام معجون الأسنان ومزيلات روائح الإبط، إضافة إلى ممارسة تغيير الملابس مع الفصول وتقسيم وجبات الطعام إلى ألوان وأصناف منفصلة. وكانت منتجات الشرق المادية والثقافية تُقلَد في الغرب، ودفعت فيه قوى التغيير والتطوير، ما أدى إلى إثراء الحضارة كاملة، إذ شكّل ميراثاً ثميناً لأوروبا الغربية وبقية العالم.

الصين: المعجزة الاقتصادية إبان عهد إمبراطورية سونغ

مع منعطف الألفية الأولى، كانت الصين في عهد إمبراطورية سونغ، وكما هي الحال الآن مع منعطف الألفية الثانية، تشهد توسعاً اقتصادياً غير مسبوق. وكما رأينا، فقد وصلت سلالة سونغ إلى السلطة في العام ٩٦٠، بعد فترة قصيرة من خلو العرش بعد سقوط إمبراطورية تانغ في العام ٩٠٧. وفي عهد إمبراطورية تانغ، انتقل مركز الثقل الاقتصادي أو "المنطقة الاقتصادية الرئيسة"، كما عَرّفها شاو تنغ شي Chao-Ting Chi، من حوض النهر الأصفر في الشمال إلى منطقة وادي اليانغستي وجنوبه[٣٤]. وواصلت القوة السياسية والعسكرية تمركزها في الشمال. وكان شمال الصين وجنوبه مرتبطين معاً بشبكة واسعة من القنوات والممرات المائية الأخرى، من أبرزها القنال الكبير الشهير. وكان الدَخْن والقمح الحبوب الأساسية التي تزرع في الشمال، وكان الأرز المحصول الرئيس في الجنوب. وتحسنت إنتاجية الأرز لكل هكتار مع إدخال سلالة جديدة تسمى "الأرز مبكر النضج" من تشامبا بفيتنام الحالية[٣٥]. أدى ذلك إلى رفع الإنتاجية إلى ثلاثة أضعاف، ولذلك ارتفع الإنتاج بشدة مع انتشار البذور الجديدة والأنواع اللاحقة عبر كامل منطقة جنوب الصين من مقاطعة فوجيان التي كانت أول من أدخل البذور الجديدة. أحدثت هذه الثورة الزراعية زيادة هائلة في عدد سكان الصين، من خمسين مليون نسمة تقريباً، كما كانوا في أوج عهد أسرة تانغ في العام ٧٥٠ (الذي كان أقل من تقدير الثلاثة والستين مليوناً في العام ٢٠٠)، إلى أكثر من مئة مليون إبان القرن الثاني عشر[٣٦]. ويذهب مارك إلفين Mark Elvin إلى أنه يمكن اعتبار هذه الزيادة السكانية إعمالاً للنموذج المالتوسي الكلاسيكي الذي يؤدي فيه نمو السكان

إلى القضاء على أية زيادات في الإنتاجية[٣٧]. لكن إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر في عهد إمبراطورية سونغ، كان الفاصل الزمني بين زيادة الإنتاجية ونمو السكان طويلاً بما يكفي لإحداث انفجار رائع في الرخاء. فقد شهدت هذه الفترة اتساعاً كبيراً في الأسواق والتجارة والتخصص، ورافق ذلك تغير تقني في الصناعة والنقل والزراعة وزيادة ملحوظة في نسبة الحضر. وشيّدت سلالة سونغ المدن الضخمة التي أذهلت ماركو بولو، وهي السلالة عينها التي أطاح بها راعيه المغولي[٣٨].

تمتعت الصين في عهد إمبراطورية سونغ باقتصاد مزدهر ونشط يضم مناطق ومدناً متنوعة جداً[٣٨]. وكان كل مركز من هذه المراكز متخصصاً فيما كان متميّزاً في إنتاجه، وكانت المراكز جميعاً مرتبطة معاً بشبكة متطورة جداً من التجار والسماسرة وغيرهم من الوكلاء التجاريين. وفي القلب من هذه الشبكة، كان هناك بالتأكيد أوسع وأفضل نظام للنقل المائي في العالم على الإطلاق. وكانت الأسر الحاكمة الصينية كلها تعتمد عادة على الزراعة باعتبارها المصدر الرئيس للدخل. وكان اتساع النشاطات التجارية والصناعية في عهد إمبراطورية سونغ يعني أن الضرائب على التجارة أخذت تلعب دوراً أكبر في القاعدة المالية للدولة. وتميزت إمبراطورية سونغ الجنوبية بأنها كانت تحصل على معظم عائداتها من الضرائب التجارية وعوائد الاحتكارات الحكومية، بدلاً من ضرائب الأرض. وكان من أكثر هذه الاحتكارات الحكومية دراً للمال الملح والشاي باعتباره الشراب الوطني.

كان الأداء الاقتصادي للصين في عهد إمبراطورية سونغ رائعاً جداً بالنظر إلى أن تاريخ هذه السلالة على امتداده تميّز بنزاع مستمر على حدودها الشمالية مع دول بدوية قوية. وكان جيش إمبراطورية سونغ الذي استخدم في المقام الأول لصد غارات البدو يتكون من مليون وربع مليون جندي. وقد شكّل ذلك عبئاً ساحقاً على الاقتصاد، على الرغم من ازدهار هذا الاقتصاد. واضطرت دولة سونغ في العام ١١٢٦ إلى

---

(٣٨) ماركو بولو Marco Polo (من نحو العام ١٢٥٤ إلى ٨ أو ٩ يناير ١٣٢٤) رحالة وتاجر بندقي سُجلت أسفاره في "كتاب عجائب العالم" Book of the Marvels of the World الذي عَرّف الأوروبيين بآسيا الوسطى والصين، خدم قوبلاي خان، حفيد جنكيز خان وأحد أكبر ملوك الإمبراطورية المغولية [المترجم].

التخلي عن الصين شمال نهر اليانغستي لبدو الجورجين[٣٩] الذين أسسوا ما يسمى دولة تشين Chin، وسنرى في الفصل التالي أن دولة الجورجين وإمبراطورية سونغ الجنوبية انهارتا في النهاية أمام المغول. وقد أدت التهديدات التي واجهها الصينيون على حدودهم البرية في عهد دولة سونغ إلى دفعهم في اتجاهات مبتكرة. ففي العصور العظيمة السابقة لدولتي هان وتانغ، كانت الصين تتفاعل مع الغرب عبر قوافل الجمال خلال آسيا الوسطى. ومن خلال طريق الحرير، تلقت الصين الموجات الكبرى من البوذية والإسلام والمسيحية النسطورية، فضلاً عن عدد من التجديدات الفنية والتقنية. لكن، حين انقطع الوصول إلى الغرب بسبب وجود دول شبه بدوية قوية مثل دولة هسي هشيا[٤٠] والخيتان[٤١]، لم يعد أمام الصينيين غير الطريق البديل، وهو البحر. وفي حين ينظر الغرب إلى الصين عادة باعتبارها قوة "قارية" منغلقة على نفسها، يقول لورنس ما Laurence J. C. Ma إن "المحيط في زمن إمبراطورية سونغ كان الباب الأمامي للصين، وكان مفتوحاً على اتساعه لكل من أراد التبادل التجاري مع الصين"[٣٩].

ومع ذلك فقد شجعت إمبراطورية تانغ التجارة، وكانت غوانزو Guangzhou (كانتون) الميناء الوحيد المزود بمركز جمارك رسمي في عهد تلك الإمبراطورية. أما في عهد إمبراطورية سونغ، فقد كان هناك ما لا يقل عن تسعة موانئ بها مراكز جمارك إمبراطورية، ترأس كلاً منها موظف كبير حمل لقب مراقب الشحن البحري. وظلت كانتون لفترة طويلة الميناء الرئيس، لكن في النهاية تراجعت أهميتها من حيث حجم التجارة أمام كوانزهو Quanzhou (زايتون) الواقعة قبالة مضيق تايوان. ومن اللافت

---

(٣٩) الجورجين Jurchen شعب تانكوتي قطن منطقة منشوريا (شمال الصين حاليا) حتى القرن السابع عشر، حين أخذوا الاسم مانشو Manchu، أسسوا دولة تشين Jin أو chin بين العامين ١١١٥ و١١٢٢ التي دامت حتى وصول المغول [المترجم].

(٤٠) هسي هشيا Hsi Hsia بمعنى هشيا الغربية western Xia إمبراطورية تانكوتية في شمال الصين بدأت في العام ١٠٣٨ حتى العام ١٢٢٧، حين دمرها المغول وأسسوا إمبراطورية يوان Yuan [المترجم].

(٤١) الخيتان Khitans أو الخيتاي شعب بدوي مغولي، ترجع أصوله إلى منغوليا ومنشوريا إبان القرن الرابع، كانت لهم دولة لياو Liao على منطقة واسعة من شمال الصين، وبعد سقوط دولتهم في العام ١١٢٥، انتقل كثيرون منهم إلى الغرب وأسسوا دولة القرخطاي Kara Khitai التي دمرتها الإمبراطورية المغولية في العام ١٢١٨ [المترجم].

للانتباه أن ميناء هواتنغ Huating، الذي عرف لاحقاً باسم شنغهاي، كان واحداً من هذه الموانئ التسعة[٤٠]. جذبت هذه الموانئ جماعات كبيرة من التجار الأجانب، من العرب والفرس بالدرجة الأولى، الذين تمتعوا بحماية قانونية كبيرة اتخذت شكل الإعفاء من القوانين الوطنية على نشاطاتهم. وانضم كثيرون منهم إلى المواقع العليا في بيروقراطية إمبراطورية سونغ، وكان من أوسعهم شهرة ونجاحاً التاجر العربي صاحب الاسم الصيني بو شو كينغ Pu Shou-keng الذي عمل مراقباً للشحن البحري في كوانزهو، والذي سلم المدينة للمغول المنتصرين إبان القرن الثالث عشر[٤١].

زادت التجارة مع كوريا واليابان في عهد إمبراطورية سونغ، لكن قناة الاتصال الرئيسة كانت في الجنوب مع جاوة وسومطرة وغيرها من الجزر الإندونيسية، وأنام[٤٢] وتشامبا في فيتنام، وأخيراً الأقاليم المحيطة بالبحر الأحمر والخليج العربي. ففي عهد إمبراطورية تانغ كان العرب والفرس هم الذين قطعوا الطريق إلى الصين في سفنهم، بينما في عهد إمبراطورية سونغ شيّد الصينيون سفنهم العابرة للمحيطات، والينكات[٤٣] الكبيرة المزودة بعدة سواري، والسفن المحكمة ضد الماء، ودفات القائم الخلفي، والأشرعة المتحركة، وغيرها من التجديدات الملاحية التي سبقوا بها بقية العالم. وكان فن الملاحة المعتمد على البوصلة الملاحية وخرائط النجوم والمعرفة التفصيلية بالرياح والتيارات المائية متقدماً جداً هو الآخر في زمن إمبراطورية سونغ.

صدّرت إمبراطورية سونغ الخزف والحرير والصناعات الصينية الأخرى إلى جنوب شرق آسيا، في مقابل التوابل والأعشاب الطبية ومنتجات الموارد الطبيعية الأخرى. وكانت تجارة جنوب شرق آسيا في التوابل مع الشرق الأوسط وأوروبا بكل أرباحها لا تُذكَر بجوار حجم تجارته مع الصين. فعدد السكان الأكبر كثيراً، والدخول الأعلى للطبقات العليا- على الأقل- في الصين، فضلاً عن القرب من أماكن المنشأ، جعلت من الصين أكبر سوق لهذه المنتجات الغريبة في التجارة العالمية، كما ذكر ماركو بولو لاحقاً.

---

(٤٢) أنام Annam مملكة قديمة في فيتنام، وكان اسما لهذه الدولة قبل العام ١٩٤٥ [المترجم].

(٤٣) الينك junk سفينة شراعية صينية ضخمة [المترجم].

ارتبطت بهذه التجارة طبقة من التجار وملاك السفن الأثرياء، كان كثيرون منهم، مثل بو شو كينغ، مسلمين من أصول عربية أو فارسية أو تركية استقروا في الموانئ الصينية. ويبدو أن الدولة نفسها شجعت التجارة البحرية المربحة في ذلك العصر، وأعاقتها أيضاً. فقد أرادت الدولة أن تشجع مصدراً مهماً جداً للدخل، من الرسوم الجمركية ومن إعادة بيع البضائع داخل الصين، أو إعادة تصدير واردات منتقاة اِتُخِذت كاحتكارات حكومية براً إلى آسيا الوسطى (مثل أصداف السلاحف والعاج وقرون الكركدن والمرجان والعقيق واللُبان[٤٤] والفولاذ عالي النوعية أو "الملائم للأسلحة") التي كانت تشتريها بأسعار مثبتة من التجار. لكن، على الجانب الآخر- جانب الإعاقة- اضطرت الدولة مرات كثيرة بفعل ضرورات الحرب إلى أن تطلب من السفن التجارية أن تعمل كسفن حربية أو للنقل العسكري. وفي النهاية تم التوصل إلى تسوية واقعية تم تدوير السفن بمقتضاها بين الاستخدام المدني والعسكري.

يقف التفضيل الكونفوشي القوي للاكتفاء الذاتي وللاقتصاد الزراعي بدلاً من الاقتصاد التجاري على طرف النقيض من المنافع المالية الواضحة للانفتاح أمام التجارة. وقد دفع ذلك التفضيل الإمبراطور كاو تسونغ Kao tsung إلى حظر استيراد سلع الترف في العام ١١٢٧، لكن في العام ١١٣٧ اضطرته الضرورة الاقتصادية إلى التراجع وإصدار مرسوم شهير أعلن فيه أن "الربح من التجارة البحرية كبير جداً، وأنه إذا أدير جيداً يمكن أن يبلغ الملايين. أليس من الأفضل أن نتعهد هذه التجارة أكثر من فرض الضرائب على الناس؟"[٤٢]. وكان جدول التعريفات الجمركية لإمبراطورية سونغ معتدلاً، وهو عُشر القيمة للسلع "عالية" النوعية، وواحد من خمسة عشر للسلع "رديئة" النوعية[٤٣].

ساعدت الحكومة القطاع الخاص بإنشاء بنية تحتية واسعة من الموانئ والمخازن والتسهيلات الأخرى، فضلاً عن المنارات على طول السواحل. تُذكّرنا هذه النشاطات بالتعاون الوثيق بين الحكومة وقطاع الأعمال الذي يرى الكثيرون أنه يميّز المعجزة الاقتصادية لشرق آسيا في أيامنا. على أن هذه النشاطات أبعد ما تكون عن الصورة

---

(٤٤) اللُبان اسم آخر للبخور [المترجم].

التقليدية "للاستبداد الشرقي" التي يربطها كثير من الكتاب الغربيين بالصين. بل إن أباطرة دولة سونغ كانوا مشغولين أكثر من أية دولة أخرى برفاه عامة الشعب. وقد حاولوا قدر استطاعتهم أن يحافظوا على استقلال البيروقراطية، حتى يبدو أنهم كانوا يفكرون في أنفسهم بصفتهم "مديرين كباراً" أكثر منهم ملوكاً مستبدين.

أوضح يونغ بانغ لو Jung-Pang Lo أن ظهور الصين كقوة بحرية في هذه الفترة تميّز بوجود علاقة دعم متبادل بين التجارة البحرية والحرب البحرية. فبعد أن طرد الجورجين إمبراطورية سونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩) من شمال الصين، اعتمدت الأخيرة في الدفاع عن نفسها على الاستخدام الإستراتيجي والتكتيكي الذكي للشبكة المعقدة من الأنهار والقنوات[٤٤]. واشتد اعتمادهم على المياه لنقل القوات بسبب فقدهم الوصول إلى إمدادات الخيول لفرسانهم من آسيا الوسطى. وكما قال مسؤول كبير في العام ١١١٣، فإن "البحار ونهر اليانغستي هي سور الصين العظيم الجديد، والسفن الحربية هي أبراج المراقبة، والأسلحة النارية هي أسلحة الدفاع الجديدة".

هذه الأسلحة النارية التي طورتها إمبراطورية سونغ بدافع الضرورة لمقاومة هجمات الفرسان المعتادة من جانب خصومهم البدو كانت المقدمة والمدخل إلى المدفعية وفن استخدام الأسلحة اللذين أسهما في تغيير فن الحرب في الغرب بعد بضعة قرون. كانت المدفعية تعتمد على استخدام البارود لتوفير شحنة متفجرة واستخدام مقذوفات موجهة تقذف من نوع من الأنابيب. واعتمدت السفن الحربية الصينية في قوتها النارية على الرماة والنشابين[٤٥]، إلى جانب استخدام القنابل المتفجرة والأسهم النارية وقاذفات اللهب. ووفقاً للديناميات المألوفة للنزاعات المسلحة، كانت هذه الأسلحة والتكتيكات هي نفسها التي يستخدمها الجورجين والمغول ضد إمبراطورية سونغ، والمغول أنفسهم ركبوا البحر لاحقاً في غزواتهم الفاشلة على اليابان وجاوة.

أدت الحرب المتواصلة إلى إنشاء صناعة كبرى أخرى مرتبطة بالدفاع، هي الحديد والصلب. وقد أشار روبرت هارتويل Robert Hartwell إلى التوسع الكبير في

---

(٤٥) النشاب هو مستخدم النشابة crossbow أو القوس المستعرض، وهي آلة حربية قديمة كانت تقذف سهاما [المترجم].

إنتاج الحديد والصلب في عهد إمبراطورية سونغ الشمالية (٩٦٠-١١٢٦)[٤٥]. فقد كان حجم الإنتاج الإجمالي ومستويات الناتج والعمالة في المصانع الفردية أكبر كثيراً مما بلغته أية دولة قبل إنجلترا القرن الثامن عشر في زمن الثورة الصناعية. فقد قدّر هارتويل أن إنتاج الحديد في الصين في العام ١٠٧٨ بلغ زهاء مئة وخمسين ألف طن سنوياً. في حين أن كامل إنتاج الحديد والصلب في أوروبا في العام ١٧٠٠ لم يزد عن ذلك كثيراً، إن بلغ هذا المستوى أصلاً. ولم يكن معدل نمو إنتاج الحديد والصلب الصيني أقل روعة، إذ ازداد اثني عشر ضعفاً إبان القرنين المنقضيين بين العام ٨٥٠ والعام ١٠٥٠.

كانت العملات الحديدية التي استخدمت إلى جانب العملات النحاسية المعتادة في بعض مناطق غرب الصين تمتص نحو عشرة آلاف طن من هذا الناتج. وثمة مصدر رئيس آخر للطلب على الحديد تمثل في المحاريث والمناجل وغيرها من أدوات الزراعة. وقد رفعت هذه الأدوات الإنتاج لكل عامل في القطاع الزراعي. فيما جاء الطلب الأكبر على الحديد من الجيش بغرض صناعة الأسلحة والدروع. وكان من نتائج التخلي عن الشمال للجورجين بعد العام ١١٢٦ فقدان الاحتياطيات المعدنية المتمركزة بالقرب من عاصمة إمبراطورية سونغ الشمالية كايفينغ K'ai-feng التي كانت تقع في وسط رواسب كبيرة من الحديد الخام والفحم. وأدى ارتباط الموارد الطبيعية بالسوق الضخم للعاصمة إلى إتاحة الاستفادة من اقتصادات الحجم الكبير وتقليل تكلفة نقل المواد الأولية الثقيلة.

يبدو أن سكان كايفينغ كانوا نحو ثلاثة أرباع مليون نسمة في العام ١٠٧٨، ما جعلها- بلا شك- واحدة من أكبر مدن العالم، وربما أكبرها على الإطلاق. وما كان لهذا العدد الكبير من السكان أن يعيش بلا إمداد وفير ومنتظم بالحبوب من الجنوب عبر القنال الكبير. وهكذا كان النقل المائي الرخيص أهم كثيراً لصناعة الحديد والصلب حول كايفينغ، حيث أسهم في خفض تكلفة نقل المدخلات إلى المدينة ونقل المنتجات منها، وشجع طلباً كثيفاً من القطاعين العام والخاص. وعملت بالصناعة قوة عاملة دائمة، وثمة علامات على وقوع صراع طبقي بين أصحاب مصانع الحديد الأغنياء والعمال الأجراء الذين كانوا يعملون عندهم. جاء أصحاب المصانع هؤلاء من طبقة

النبلاء ملاك الأراضي التي كان كثير من أعضائها من الداخلين الجدد في هذه الجماعة المتميّزة.

يتفق متخصصو الحضارة الصينية عموماً على أن حقبة إمبراطورية سونغ مثلت ذروة إنجازات الحضارة الصينية في الفنون والآداب والفلسفة، وكذلك في الاقتصاد والتقنية والإدارة العامة. ولذلك كان سقوطها أمام المغول نكسة مأساوية لما كان يمكن أن يشكل اختراقاً للمجتمع والحضارة الصناعيين الحديثين قبل الغرب بقرون، على الرغم من أن المغول أنفسهم تَصيّنوا كثيراً في أثناء حكمهم، وفي البداية أيد أباطرتهم المعروفون باسم مينغ Ming التوجه البحري "المنفتح" على الخارج الذي ميّز إمبراطوريتي سونغ ويوان Yuan، لكنهم تحولوا أخيراً إلى الانغلاق على الذات كما سنرى، وفي المجال الثقافي حدث إحياء للأرثوذكسية الكونفوشية، لكن غابت الروح الواقعية التجريبية التي ميّزت عصر سونغ. وهكذا وضع الهجوم المغولي نهاية محزنة "لازدهار" مبكر رائع في النمو الاقتصادي[٤٦] كان في مستوى العصر الذهبي للإسلام الذي كان معاصراً له تقريباً، إن لم يتفوق عليه.

المحيط الهندي وتجارة جنوب شرق آسيا

كان وقوع جنوب شرق آسيا عبر الممرات البحرية التي تربط الصين بالشرق الأوسط يعني أن الازدهار المتزامن على الطرف الأول في إمبراطوريتي تانغ وسونغ، وعلى الطرف الآخر في خلافتي العباسيين والفاطميين، من شأنه بالتأكيد أن يؤدي إلى تجارة عبور وتجارة صادرات مزدهرة في الاتجاهين كليهما في هذه المنطقة[٤٧]. وكما أشرنا بإيجاز في الفصل الأول، فقد كان ذلك القوة الدافعة الأولى لظهور مملكة فونان الهندية–الصينية وتشجيع التجارة عبر برزخ كرا، التي حلت محلها لاحقاً إمبراطورية سريفيجايا السومطرية التجارية التي سيطرت على المرور خلال مضيق مالاكا ومضيق سوندا. وقد كانت التجارة مربحة جداً لدرجة أنها حثت المنافسة من دول أخرى، ليس من جاوة القريبة وحسب، بل أيضاً من الحكام الكمبوديين والتايلنديين والبورميين على اليابسة الآسيوية، وكذلك من سيلان. وجاء التهديد الرئيس من سلالة تشولا

(٨٥٠-١٢٧٩) القوية والعدوانية في جنوب الهند. كانت تجارة إمبراطورية تشولا تخضع لسيطرة نقابات تجارية تاميلية كبيرة جيدة التنظيم، استأجرت قوات مرتزقة تابعة لها وتمتعت باستقلالية كبيرة، بالتنسيق مع السلطة الملكية.

كانت العلاقات بين إمبراطورية سريفيجايا وإمبراطورية تشولا ودية في بادئ الأمر، وحينها منح حاكم مملكة سريفيجايا إمبراطورية تشولا ديراً بوذياً في الميناء الرئيس لإمبراطورية تشولا المسمى ناغاباتينام Nagapattinam، ربما كي يستخدمه التجار من جنوب شرق آسيا. لكن في العام ١٠٢٥، شن حاكم تشولا راجندرا الأول Rajendra I (١٠١٢-١٠٤٤) هجوماً بحرياً مدمراً على سريفيجايا لم تتعاف منه وتستعد مكانتها وقوتها السابقة مطلقاً[٤٨]. ويذهب هول ووايتمور Hall and Whitmore إلى أن الهجوم بدد هيمنة سريفيجايا، ما أدى إلى هجرة التجارة بعيداً عن طريق المضايق نحو الشواطئ الشمالية والغربية لسومطرة وشرق جاوة وإنعاش الطريق العابر لشبه الجزيرة عبر برزخ كرا[٤٩]. وأنشا ملك الخمير سوريافارمان الأول Suryavarman I (١٠٠٢-١٠٥٠) ميناء تامبرالينغا Tambralinga على الساحل الشرقي لشبه جزيرة الملايو ليكون قاعدة للتجارة عبر البرزخ، وأقام علاقات دبلوماسية وتجارية مع سيلان وجنوب الهند. لكن الخمير اضطروا في النهاية للانسحاب من هذه النشاطات المتمركزة نحو الغرب للتعامل مع الاضطرابات والتهديدات الداخلية على حدودهم الشرقية. كما تحركت إمبراطورية باغان الناشئة في وسط بورما جنوباً لاستغلال الفراغ الذي حدث في أثناء ما يسميه هول ووايتمور "صراع البرزخ" الناتج عن أفول مملكة سريفيجايا. وانخرط البورميون بقوة في التجارة عبر خليج البنغال مع سيلان وموانئ جنوب الهند، وشاركوا أيضاً في عدد من المبادلات الدينية للآثار المقدسة والرهبان مع المراكز البوذية في سيلان والهند. لكن ذلك لم يمنع هجوماً سيلانياً لاحقاً على بورما الدنيا إبان العقد السابع من القرن الثاني عشر بسبب النزاعات التجارية.

كانت تجارة جنوب الهند بداية من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر، والدور الذي لعبته فيها نقابات التجار التاميلية، موضوعاً لمقالة كلاسيكية لبيرتن شتاين Burton Stein[٥٠] ودراسة رائدة مفصلة لميرا أبراهام Meera Abraham[٥١]. يشير

أبراهام إلى أن سيلان وممالك جنوب الهند بوقوعها في منتصف الطريق بين جنوب شرق آسيا والعالم الإسلامي استطاعت أن تعمل وسطاء وكذلك موردين لمنتجاتهم في سلسلة تمتد من بحر الصين الجنوبي إلى البحر الأحمر والخليج العربي. ويشير شتاين إلى أن ميناء كونجيفرام Conjeeveram على ساحل كورومانديل الشرقي بشبه الجزيرة الهندية دخل في علاقات تجارية ترجع إلى القرن الأول بعد الميلاد مع كل من الصين والإمبراطورية الرومانية[٥٢]. وقد أسس التجار اليهود والمسيحيون من الشرق الأوسط جماعات صغيرة، وإن كانت باقية في الهند، مثل الجماعة المسيحية "السورية" التي لا تزال مزدهرة إلى اليوم في ولاية كيرالا Kerala الهندية. ويقال إن المؤسس الأسطوري لهذه الكنيسة، وهو الحواري توماس Thomas، شق طريقه إلى الهند بصحبة تاجر، ويورد أبراهام أدلة وثائقية لتجار ورجال دين مسيحيين من سوريا وفلسطين، منهم الأسقف توماس الكاني(٤٦)، استوطنوا في ميناء كويلون Quilon في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع[٥٣].

يذكر شتاين نقوش معابد من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر تتعلق بنشاطات اثنتين من النقابات الرئيسة، وهما أيافول Ayyavole ومانيغرامام Manigramam، "تعطي انطباعاً بوجود تجار نشطين وواثقين، منظمين في مجموعات كبيرة متجولة، تتاجر في تشكيلة كبيرة من السلع، تتراوح من الخيول إلى الأحجار الكريمة"[٥٤]. فيقول أحد النقوش إن "السلع التي تاجروا فيها كانت الفيلة والخيول والياقوت وحجر القمر واللآلئ والماس والعقيق والزبرجد والزمرد والمرجان والهيل والقرنفل وخشب الصندل والكافور والمسك". وذُكِر أيضاً في النقوش أن هذه السلع من خلال الرسوم الجمركية المحصلة منها كانت "تملأ خزانة الحاكم بالذهب والجواهر وتوفر له الأسلحة". وأوفد راجاراجا Rajaraja بعثة تجارية إلى بلاط إمبراطورية سونغ في العام ١٠١٥، أخذت معها "إحدى وعشرين ألف أوقية من اللآلئ وستين ناب فيل

(٤٦) نسبة إلى مدينة كانا Cana في الجليل بشمال فلسطين التي ورد ذكرها عدة مرات في إنجيل يوحنا بالعهد الجديد [المترجم].

وستين كاتياً من اللُبان"(٤٧)، وكذلك ثلاثة آلاف وثلاثمائة كاتي من النباتات العطرية[٥٥]. كان اللُبان يأتي من الشرق الأوسط، وكانت النباتات العطرية تأتي من جنوب شرق آسيا، ما يشير إلى قدرة إمبراطورية تشولا على الحصول على هذه المواد الثمينة، وهو ما أثار تقدير الإمبراطور الصيني لهم كشركاء تجاريين "من الدرجة الأولى" لإمبراطورية سونغ. وكانت اللآلئ تأتي من مصايد اللؤلؤ بخليج مانار Mannar على الساحل الشمالي الغربي لسيلان، وهي منطقة مدّت إمبراطورية تشولا سيطرتها إليها، واكتشف علماء الآثار فيها خزفاً صينياً وإسلامياً يعود تاريخه إلى القرنين العاشر والحادي عشر، وهي فترة احتلال تشولا للمنطقة. وابن راجاراجا المدعو راجندرا الذي نفذ الهجوم على سريفيجايا في العام ١٠٢٥، أوفد أيضاً بعثة تجارية إلى إمبراطورية سونغ في العام ١٠٣٣. ومن الواضح أن نقابات التجار التاميليين كانت منتشرة عبر جنوب شرق آسيا وحتى في أماكن بعيدة مثل ميناء كوانزهو الصيني الرئيس الذي لا يزال ينتصب فيه المعبد الذي شيّدوه، كما عُثِر على نقوش تذكرهم في سومطرة وشبه جزيرة الملايو وباغان.

ونتيجة للتعرض لهذه التيارات التجارية، أصبح حكام جنوب الهند وسيلان متلهفين للحصول على العائدات التي يمكن أن تتحقق من تشجيع التجارة وفرض ضرائب معتدلة عليها. وكما أشرنا في موضع سابق، فإن التجار أنفسهم استأجروا قوات مرتزقة عاونت الجيوش والأساطيل الملكية، وهكذا كانت التجارة والتوسع العسكري يسيران يداً بيد في أغلب الأحيان. من ذلك مثلاً أن إمبراطورية تشولا أرسلت حملات عسكرية إلى جنوب شرق آسيا وجزر المالديف، ومنه أيضاً غزواتهم على سيلان التي كانت مدفوعة باعتبارات تجارية. فعلى النقيض من سبنسر Spencer الذي يدفع بأن الغرض من هذه الهجمات كان "نهب مراكز سياسية ودينية كبرى وتدميرها"[٥٦]، يرى أبراهام أن "التجارة كانت عاملاً مهماً في تأطير سياسة تشولا، وأن حكام تشولا كانت لهم صلات بالجماعة التجارية، وأن درجة من المنفعة المتبادلة

(٤٧) الكاتي وحدة وزن في جنوب الصين وجنوب شرقي آسيا تساوي نحواً من رطل إنجليزي وثلث [المترجم].

تحققت لكل من الحاكم والتاجر من سياسة خارجية دعمت التاجر"[٥٧]. وفي حالة الهجوم على سريفيجايا، لا يمكن أن يكون الغزو هو الدافع لأنه لم تحدث محاولات واضحة لاحتلال إقليم جنوب شرق آسيا أو إقامة حاميات هناك. ويذكر أبراهام أن "الهجوم نُفِّذ جزئياً على الأقل لفرض حقوق للتجار الناطقين بالتاميلية في تلك المناطق، وهي تجارة توقع الحاكم والتاجر وبيروقراطية تشولا منها أرباحاً كبيرة"[٥٨]. ومن المرجح أن الدافع التجاري الذي ربما حثته نقابات التجار هو التفسير الأكثر احتمالاً، وهو أيضاً تفسير لا يتناقض مع النهب كحافز إضافي للجيش الملكي ومرتزقة نقابات التجار الذين شاركوا بالتأكيد في العملية، على الأقل كذراع بحري لهذا الجيش. وبعد انهيار إمبراطورية تشولا، تراجع دور نقابات التجار في اقتصاد جنوب الهند ومجتمعها بشدة، وإن بقي هذا الدور حتى القرن السابع عشر، وهو وقت متأخر حقاً[٥٩].

بإيجاز، تشير الأدلة إلى حقبة اقترن فيها التوسع التجاري بالاتصال الثقافي والتفاعل السياسي النشطين عبر شرق المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي. ربما تمثلت أبرز سمةٍ للقرن الحادي عشر في هذه المنطقة في التفاعل بين التجارة الدولية وظهور دول جديدة رئيسة وترسيخ البوذية الثهروادية باعتبارها المكون الثقافي المهيمن على يابسة جنوب شرق آسيا وسيلان الذي ظل دون تغيير حتى اليوم.

إننا نستمد معظم معرفتنا بالأماكن والمنتجات المرتبطة بالقوس الواسع للتجارة من بحر الصين الجنوبي إلى الخليج العربي والبحر الأحمر من عمل كتبه في العام ١٢٢٥ مسؤول بإمبراطورية سونغ يدعى شاو جو كوا Chau Ju kua شغل منصب مراقب التجارة البحرية في كوانزهو. يحمل هذا العمل الرائع والمهم عنوان Chu-fan-chi الذي يترجم إلى "وصف الشعوب البربرية"، أو بلغة أكثر لطفاً "سجلات الأمم الأجنبية"، ويعتمد على عدد من النصوص الصينية القديمة وكذلك على الملاحظة والتقصي المباشرين اللذين نفذهما الدارس- الموظف في أثناء أداء مهامه الوظيفية[٤٨]. يتضح من

(٤٨) توجد ترجمة إنجليزية لكتاب هيرث وروكهيل Hirth and Rockhill (١٩٦٤) مزودة بهوامش علمية ثمينة، ويشكل الكتاب أيضاً الأساس للدراسة القيّمة التي أجراها با ويتلي Pa Wheatley (١٩٥٩).

هذا العمل أن الصينيين وإمبراطورية سونغ كانوا عارفين بجنوب شرق آسيا الجزيرية والقارية، فضلاً عن سيلان والهند والشرق الأوسط وشرق أفريقيا، وحتى بعض أجزاء البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية.

وفيما يتعلق بتركيب السلع في التجارة، يذكر شاو جو كوا تشكيلة واسعة من المنتجات الغريبة، يبلغ عددها ثلاثمائة وتسعاً وثلاثين سلعة، كانت الصين تستوردها من كل هذه المناطق. وكما يشير ويتلي Wheatley، فإن شاو جو كوا يبدو مشوشا جداً حول المصدر الأصلي لكثير من هذه الواردات، فكثيراً ما ينسب الرجل مصدر مواد معينة إلى أماكن أعيد تصديرها منها، وليست مكان إنتاجها بأي حال من الأحوال. وكانت أهم السلع التي تستوردها الصين هي النباتات العطرية والعقاقير مثل اللُبان والمُر من حضرموت، وخشب الصندل من جنوب شرق آسيا، والعنبر من ساحل شرق أفريقيا. وكان الصينيون يستخدمون التوابل القادمة من جزر الملوك مثل القرنفل وجوز الطيب للأغراض الطبية، وكانوا أيضاً يثمّنون أنياب الفيلة وقرون الكركدن القادمة من أفريقيا. وكانوا كذلك يستوردون العبيد السود الصغار الذكور والإناث من أفريقيا. وفي حين كان الحرير أحد الصادرات الصينية الرئيسة إلى جنوب شرق آسيا، كانت الصين تستورد الأقمشة المطرزة الرفيعة والدِمَقْس من الشرق الأوسط، والمنسوجات القطنية من مالابار الهندية وسواحل كورومانديل. وكانت الصين تستورد الفولاذ والسيوف من الهند، وتستورد معادن كثيرة، على رأسها القصدير، من جنوب شرق آسيا. وكذلك كان الخزف، إلى جانب الحرير، السلعة التصديرية الصينية الرئيسة، وقد وُجِد بكميات كبيرة على طول الطريق من جنوب شرق آسيا وسيلان إلى شبه الجزيرة العربية والساحل السواحلي بشرق أفريقيا وزنجبار.

يذكر ويتلي أنه قد يكون من المفاجئ لنا أن نجد أن معرفة الصينيين في عهد إمبراطورية سونغ بالشرق الأوسط وحتى شرق أفريقيا كانت أكبر من معرفتهم بالهند[٦٠]. ربما يرجع تفسير ذلك إلى أن تمثيل التجار الهنود- باستثناء نقابة التجار التاميلية في كوانزهو- كان أقل في الموانئ الصينية من التجار العرب والفرس والأتراك الذين كان حضورهم ملحوظاً جداً في تلك الأماكن. ويذكر ما Ma أن هذه الموانئ

ضمت ما لا يقل عن عشرين بعثة تجارية من أقاليم العالم الإسلامي في عهد إمبراطورية سونغ، في مقابل قلة لا تُذكَر من إمبراطورية تشولا والممالك الهندية الأخرى[٦١]، وهو دليل آخر على المركزية الاقتصادية للعالم الإسلامي في هذه الفترة. نتحول فيما يلي إلى المحيط الغربي لأوراسيا وإلى تأثير الفتوحات العربية هناك.

أطروحة بيرين

"لولا النبي محمد لما كان شارلمان"(٤٩)، تلك هي المقولة الشهيرة للمؤرخ البلجيكي العظيم هنري بيرين Henri Pirenne[٦٢] التي أطلقت واحداً من أكثر السجالات الأكاديمية سحراً وبقاءً، وهو سجال لم يُحسَم كاملاً إلى اليوم. كان بيرين يهاجم الحكمة السائدة في عصره القائلة بأن غزوات القبائل الجرمانية أطاحت بالمحيط المتحضر للإمبراطورية الرومانية في مقاطعة الغال(٥٠)، ما أطلق "العصور المظلمة" التي ارتد المجتمع خلالها إلى الاقتصاد الريفي المكتفي ذاتياً القائم على فلاحين أرقاء خاضعين لسادة إقطاعيين. حل هذا المجتمع محل الإمبراطورية البيروقراطية المتمدنة للنخبة الرومانية الحضرية التي تحصل على تمويلها من الضرائب المباشرة على الأرض والمكوس على تجارة ما وراء البحار المزدهرة مع المقاطعات البيزنطية الشرقية. دفع بيرين بأن السادة الجدد للمجتمع الغالي-الروماني، وهم ملوك الفرنجة الميروفنجيون، حافظوا فعلاً على السمات الأساسية للإدارة الرومانية، وحتى على عملتها الذهبية، بعد تحولهم إلى الكاثوليكية الرومانية، وحافظوا بذلك على استمرارية النظام الاجتماعي الاقتصادي مع نظام العصر القديم الكلاسيكي، فيما حدث التغير الوحيد في تركيب القيادة العليا. ويرى بدلاً من ذلك أن الانقطاع الحقيقي لم يحدث مع سيطرة البرابرة إبان أواخر القرن الخامس والقرن السادس، وإنما بعد أن انتزعت الخلافة العربية السيطرة على البحر الأبيض المتوسط من البيزنطيين، ما أدى إلى فصل النصفين الشرقي والغربي للإمبراطورية الرومانية السابقة أحدهما عن الآخر إبان النصف الثاني

---

(٤٩) الإشارة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أمثال هذه المواضع تعني ضمناً ظهور الإسلام كحدث سياسي وانتشاره كحدث جيوسياسي [المترجم].

(٥٠) الغال Gaul هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي قطنها الغاليون وهم شعوب كلتية، انتشرت في شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا [المترجم].

من القرن السابع. ثم جاء الانقطاع التالي للصلات الخارجية التجارية وغيرها- بحسب بيرين- ليعيد أوروبا الغربية إلى قاعدة اقتصادية بدائية مكتفية ذاتياً في عهد السلالة الكارولينجية. وعلى ذلك يمكن القول إنه لولا النبي محمد لما كان شارلمان.

يقوم الدعم التجريبي لأطروحة بيرين على ما أسماه روبرت لوبيز Robert Lopez "اختفاء الأشياء الأربعة" من أوروبا الغربية: ورق البردي والأنسجة الفاخرة والتوابل الشرقية والعملات الذهبية، التي كانت تعتمد جميعها على بيزنطة. وقد كان على بيرين بالطبع أن يثبت أن هذه المواد اختفت فعلاً وأن توقيت اختفائها تزامن مع الفتوحات العربية[٦٣]. كان ورق البردي يستخدم في الإمبراطورية الغربية لمعظم أغراض إمساك السجلات في كل من الدولة والكنيسة وكذلك الصفقات التجارية الكبرى. ويذكر بيرين أن "كل الحمولات من هذه السلعة كانت تُفرّغ بالتأكيد على أرصفة الموانئ البحرية"[٦٤]، ودفع بأن الميروفنجيين توقفوا عن استخدام ورق البردي للوثائق المَلكية بعد العام ٦٧٧ وأن الرهبان والتجار في بلاد الغال توقفوا عن استخدامه أيضاً بعد ذلك التاريخ، مع أنهم استمروا في استخدامه لبعض الوقت في إيطاليا[٦٥]. وكذلك كان البلاط الميروفنجي والكنيسة يستخدمان الحرير والأقمشة المطرزة على نطاق واسع، بينما استعاض عنها الكارولينجيون بالأقمشة الصوفية الفلمنكية البسيطة. وفي الوقت نفسه تقريباً توقف استخدام العملات المعدنية الذهبية والتوابل الشرقية.

فنّد لوبيز الاختفاءات الأربعة جميعها، لبعض الوقت على الأقل. فقد استمر استخدام ورق البردي في إيطاليا، كما دفع لوبيز بأن تراجعه في بلاد الغال ارتبط بتأثير القانون الروماني، وأن تلاشي استخدامه نتج عن الهبوط في الطلب، وليس القيود على العرض. أما بالنسبة للأنسجة الفاخرة والتوابل الشرقية، فيدفع لوبيز مجدداً بأن التغير في الطلب بسبب تغير الأذواق، وليس القيود على العرض من جانب العرب، كان المسؤول عن اختفائها، لكنه لم يقدم حججاً مقنعة عن سبب حدوث هذا التحول. فبالنسبة للأنسجة الفاخرة، مثل "الأرجواني الملكي"، رأى أن البيزنطيين أنفسهم ربما قيّدوا صادراتها ليحرموا الحكام الغربيين الصاعدين من رموز العظمة الإمبراطورية. وبالنسبة للذهب، دفع بأن العرب في إسبانيا كانوا يستخدمون القاعدة

الفضية، ما أجبر الحكام الفرنجة على اتباعهم، لكنه هنا أيضاً لم يقدم حججاً قوية للأسباب وراء ذلك.

جاء النقد الأشد لأطروحة بيرين من دانيال دينيت Daniel Dennett الذي تساءل عن الأسباب التي دفعت العرب إلى تقييد التجارة مع الغرب في المقام الأول، وعما إذا كانوا يمتلكون القدرة على تقييدها إن أرادوا ذلك[٦٦]. فعلى كل، وكما رأينا في مواضع سابقة، فإن العرب تاجروا مع الكفار من كل الملل، من البدو الوثنيين في آسيا الوسطى والهنودس والبوذيين في الهند وجنوب شرق آسيا، وحتى مع أكبر منافسيهم المسيحيين، وهم البيزنطيون. وما الذي يمنعهم عن التجارة مع الفرنجة في أوروبا الغربية، بينما كانوا يتاجرون مع إخوانهم ومنافسيهم السياسيين المسلمين الأمويين في إسبانيا وكذلك مع المسيحيين في إيطاليا؟ وإذا كانت التجارة مع بلاد الغال قد تراجعت فعلاً، أليس من الممكن أن يكون ذلك قد نتج عن التمزق والعراقيل التي أحدثتها غزوات البرابرة والردة الاقتصادية المصاحبة، كما تذهب وجهة النظر التقليدية، وليس نتيجة لأي حظر متعمد من جانب الخلافة الإسلامية؟ وعلى أية حال، فقد دفع دينيت بأن العرب لم يكن بمقدورهم أن يفرضوا حظراً على بلاد الغال دون الاستيلاء على صقلية الذي لم يحدث إلا بعد العام ٨٢٧ حين غزا الأغالبة حكام تونس الجزيرة واستولوا على باليرمو في العام ٨٣١، ولم يستولوا على سيراكوز[٥١] إلا في العام ٨٧٨ وتاورمينا Taormina في العام ٩٠٢، ولم يسيطروا على الجزيرة كاملة إلا إبان القرن العاشر. وثمة دفاع ممكن عن بيرين قدمه إلياهو أشتور Eliyahu Ashtor وهو أن الحرب الدائمة تقريباً في البحر الأبيض المتوسط بعد الفتوحات العربية أعاقت التجارة وقلصّتها كثيراً، على الرغم من أنه لم تحدث أية محاولة متعمدة لفعل ذلك من الجانب الإسلامي[٦٧].

وعلى ذلك، تذهب أطروحة بيرين إلى أن ظهور الإسلام كان قوة دافعة لنقض العولمة، أي قوة مبدّدة للعولمة، على الأقل فيما يتعلق بأوروبا الغربية،

---

(٥١) Syracuse أو سرقوسة في المصادر العربية المبكرة [المترجم].

وتلك مفارقة فعلاً، بالنظر إلى التأثير الدمجي الشديد الذي مارسه الإسلام على نطاق واسع[٥٢]. ربما يمكن لبيانات الأسعار النسبية أن تساعد في حل هذه القضية. فإذا كان بيرين أو أشتور محقين في مذهبهما، فإن الأسعار النسبية للواردات الفاخرة إلى أوروبا الغربية لا بد أن تكون قد ارتفعت، ما يعكس القيود على العرض، أما إذا كان لوبيز محقاً في مذهبه، فإن الأسعار النسبية للورق والتوابل الشرقية لا بد أنها انخفضت نتيجة لانخفاض الطلب. لكننا للأسف لا نمتلك بيانات أسعار لتلك الفترة المبكرة، ولذلك يتحتم علينا أن نتثبت من ذلك بأدلة كيفية ونوعية حول التدفقات التجارية وطرق التجارة. وعلى وجه التحديد، أكدت الدراسات الحديثة أن البحر الأبيض المتوسط لم يكن الطريق الوحيد للتجارة بين أوروبا الغربية والعالم الإسلامي. فثمة إمكانية أخرى، وهي أن السلع الغربية كان يمكن تبادلها مع منتجات الغابات من أقصى الشمال كالفراء والعسل والشمع والكهرمان، ثم يعاد تصديرها إلى العالم الإسلامي، في مقابل ما كان الأخير يمكن أن يقدمه. معنى ذلك أن العالمين الإسلامي والكارولينجي كانا يرتبطان عبر وساطة القراصنة – التجار الاسكندينافيين الأقوياء المعروفين باسم الفارانجيين[٥٣].

أوروبا الشرقية: حلقة الفايكنغ

ترجع هي الفرضية الجريئة إلى المؤرخ ودارس العملات السويدي ستور

---

(٥٢) ربما لذلك لم يُسكّ مفهوم للسلام الإسلامي Pax Islamica أو السلام العربي Pax Arabica على منوال السلام الروماني أو المغولي أو البريطاني أو الأمريكي التي وردت إشارات إليها في حواشٍ سابقة للمترجم، في المقام الأول بسبب الجوار الجغرافي والصراع السياسي المباشر بين الدول الإسلامية الكبرى والدول الغربية، ما جعل التأثيرات المفيدة اقتصادياً وسياسياً وثقافياً للفتوحات العربية تعم الشرق دون الغرب [المترجم].

(٥٣) الفارانجيون [أو الإفرنج] Varangians هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون والسلاف الشرقيون على الفايكنغ الذين حكموا دولة روسيا Rus بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر وشكّلوا الحرس الفارنجي البيزنطي، وهو الحرس الشخصي للأباطرة البيزنطيين [المترجم].

بولين Sture Bolin الذي أطلق على بحثه الرائع حول هذا الموضوع العنوان "محمد وشارلمان وروريك"(٥٤). وتتضح الحجة الأساسية التي قدمها بولين بجلاء في الاقتباس التالي[٦٨]:

أولاً، من المؤكد، بغض النظر عن توقف التجارة بين أوروبا الغربية والعالم العربي إبان الفترة الكارولينجية من عدمه، أنه في داخل الخلافة الإسلامية ازدهرت التجارة والصناعة والاقتصاد الحضري لدرجة غير مسبوقة. ثانياً، بغض النظر عن زيادة تجارة أوروبا الغربية أو تناقصها في هذه الفترة، فقد أصبحت الارتباطات القديمة بين أوروبا الغربية والدول الشمالية والبلطيقية أكثر أهمية، وبخاصة في الجزء الأول من العصر الكارولينجي. وفي حال وضع هاتين الحقيقتين المقبولتين جنباً إلى جنب، فإن المشكلة الأساسية تدفع بنفسها مجدداً، حيث تقود المرء إلى التساؤل عما إذا كانت الاتصالات بين إمبراطورية الفرنجة والشمال قد أصبحت أكثر حيوية نتيجة لتقلص الاتصالات بين الغرب والمشرق، أو ما إذا كانت العوامل عينها مسؤولة عن ازدهار التجارة داخل الخلافة الإسلامية وحول بحر الشمال.

تقدم بولين مباشرة من البديل الثاني مستنتجاً أن ازدهار العالم العربي أدى مباشرة إلى تحفيز النمو التجاري والاقتصادي في الغرب من خلال تأثيره الأولي على الفارانجيين والروس. وبذلك كان النبي محمد، بمعنى ما، هو منشئ الدولة الكارولينجية، كما دفع بيرين، لكن من خلال تشجيع النمو الاقتصادي والتجارة في أوروبا الغربية، وليس إعاقتهما. بداية، دفع بولين بأن التجارة بين أوروبا الغربية والشرق لم تتوقف إبان القرنين السابع والثامن بعد ظهور الإسلام، بل استمرت بتصدير العبيد والفراء والسيوف في مقابل الفضة والمنتجات الفاخرة كالحرير والتوابل. وكان العبيد يأتون في الغالب من السلاف الشرقيين، والفراء أيضاً من أقصى الشمال

(٥٤) الأسماء الواردة في عنوان هذا البحث هي للنبي محمد عليه الصلاة والسلام وملك الفرنجة شارلمان الواردين في عنوان كتاب بيرين السابق "شارلمان ومحمد"، اللذين أضاف إليهما بولين الاسم روريك Riurik وهو مؤسس السلالة الروريكية التي حكمت روسيا حتى القرن السابع عشر [المترجم].

والشرق، ولذلك كانت هذه السلع سلعاً يعاد تصديرها وليست صادرات، فيما كانت السيوف فقط صناعة فرنجية. فقد كان الفرنجة يحصلون على العبيد والفراء من مناطق البلطيق وبحر الشمال في مقابل المواد الأولية والمنتجات المصنعة من بلاد الفرنجة. وكان العبيد يساقون مشياً على الأقدام على طول الطرق من كراكوف إلى براغ، ويُجمعون في فيردان(٥٥)، ثم يصدّرون عبر آرل(٥٦) إلى إسبانيا والأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي بوساطة تجار من يهود الرذنية Rhadanite متعددي اللغات الذين امتدت اتصالاتهم من إسبانيا وشمال أفريقيا إلى الصين.

ويذهب بولين إلى أن فترة أوائل القرن التاسع شهدت تحولاً أساسياً، حين فتح الاسكندينافيون قناة مباشرة إلى الأسواق الشرقية المربحة من خلال السيطرة على النظم النهرية الروسية وانتزاع الفراء والعبيد كجزية من السكان الفنلنديين والسلافيين المحليين بالقوة الوحشية، ومبادلتها بالفضة الإسلامية والحرير البيزنطي. وقد أدى اكتشاف مناجم فضة غنية جداً في مناطق طشقند ووادي بانجشير Panjshir في أفغانستان الحالية إلى تدفق هائل للفضة في شكل عملات عباسية وسامانية، كانت تنتقل إلى أيدي الاسكندينافيين، ومنهم إلى الغرب (انظر الشكل ٢,٣)(٥٧). ويشبّه بولين تدفق الفضة إبان القرنين التاسع والعاشر بذلك التدفق الذي أحدثه فاتحو العالم الجديد إبان القرن السادس عشر(٥٨)، كما أحدث تأثيرات تضخمية وتوسعية مماثلة.

---

(٥٥) فيردان Verdun مدينة بشمال شرق فرنسا [المترجم].

(٥٦) آرل Arles مدينة بجنوب فرنسا [المترجم].

(٥٧) راجع الخرائط المفيدة جداً في O'Brien (2002, pp. 71, 78).

(٥٨) سيرد في فصول لاحقة أن الفاتحين الأيبيريين، وبخاصة الإسبان، اكتشفوا جبالاً من الفضة في الأمريكتين، أخذت تتدفق على بلدانهم وعلى العالم القديم كله، على مدى عقود متتالية [المترجم].

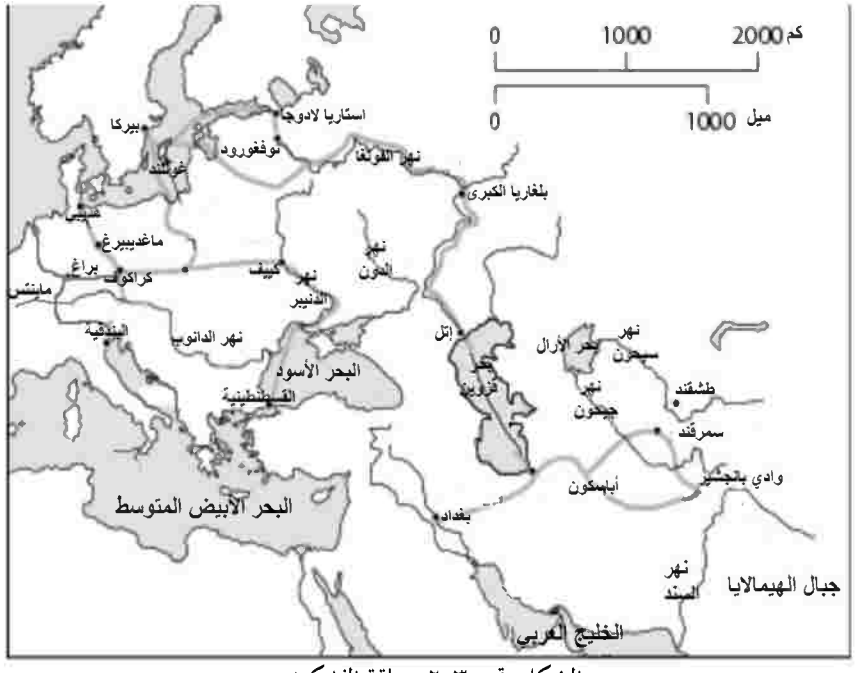

الشكل رقم (٢,٣) حلقة الفايكنغ.

ينطوي إثبات نسخة بولين من أطروحة بيرين، أو بالأحرى هذا القلب لأطروحة بيرين، على ثلاث خطوات. أولاً، يجب إثبات التوسع الاقتصادي للعالم الإسلامي من القرن السابع إلى القرن العاشر، وهو ما حدث في الأقسام السابقة من هذا الفصل. ثانياً، يجب التحقق من الطبيعة والأبعاد الدقيقة للتجارة بين السويديين والروس من جانب والاقتصادات الإسلامية من جانب آخر. وأخيراً، يجب إثبات حلقة الوصل بين التجارة الشرقية والغرب عبر منطقة البلطيق وبحر الشمال. فيما بقي من هذا القسم، نحاول أن نثبت الحلقة المتوسطة المهمة في سلسلة العلاقات السابقة، وهي حلقة الربط التي نشير إليها باسم "حلقة الفايكنغ". ومن حسن الحظ أن هذا الموضوع تطور كثيراً منذ أن كتب بولين أطروحته، وبخاصة من خلال الكتاب الثاقب للمؤرخ ودارس العملات الأمريكي توماس نونان Thomas S. Noonan الذي نعتمد عليه فيما يلي[٦٩]. وستكون الصلات بين الاقتصاد الكارولينجي والعالم الشمالي ومنطقة البلطيق وبحر الشمال موضوع القسم التالي.

يبدأ نونان بالسؤال: "لماذا جاء الفايكنغ إلى روسيا في المقام الأول؟"[٧٠] من المؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك طلباً للغنائم أو للنهب، كما كانت الحال في الغرب الذي كانوا يغيرون فيه على الأديرة والبلدات الغنية على سواحل إنجلترا وأيرلندا وفرنسا. فروسيا في ذلك الوقت كانت أرضاً كثيفة الغابات ومتناثرة السكان ولا تحوي كنوزاً عظيمة تغري بنهبها. لكنها كانت تمتلك مصدراً وفيراً للثروة في أقصى الجنوب على طول النظم النهرية الروسية الواسعة والممرات القصيرة على طول الفولغا إلى بحر قزوين وبغداد، أو على طول نهر الدنيبر إلى البحر الأسود والقسطنطينية. وقد كان العالم الإسلامي على وجه التحديد مصدراً وفيراً للدراهم الفضية التي يمكن مبادلتها بمنتجات الغابات الشمالية مثل الفراء، فضلاً عن العبيد السلافيين[٥٩] من الجنسين الذين كانوا يحصلون عليهم من البلدات الزراعية المستقرة[٦٠]. وكانوا يحصلون على الفراء والعبيد جزئياً في مقابل السلع البلطيقية مثل السيوف الفرنجية أو الخرز الزجاجي، لكن بالدرجة الأولى كجزية كانوا يفرضونها بالقوة على قبائل الصيد والجمع الفنلندية أو التجمعات الزراعية السلافية. ولم يكن الفايكنغ مضطرين إلى نقل هذه السلع على طول الطريق إلى بغداد أو القسطنطينية، ذلك لأن الخزر وبلغار الفولغا عملوا كوسطاء مفيدين، وفي معسكراتهم كان يجري تبادل السلع والعبيد الشماليين في مقابل العملات الفضية والمنتجات الفاخرة مثل الحرير، بما كان يعود بالنفع والربح على الأطراف الثلاثة جميعها، إن لم يكن على الأسرى تعيسي الحظ أيضاً[٦١].

نشأت المستوطنات والبلدات الروسية الأولى مثل استارايا لادوجا Staraia Ladoga ونوفغورود وكييف نفسها في الأصل كنقاط جمع ومحطات تجارية ومحطات

---

(٥٩) كما ورد في حاشية سابقة، فإن العبيد السلاف يُعرَفون في التاريخ العربي الإسلامي باسم "الصقالبة" [المترجم].

(٦٠) مصطلح "المستقرة" يعني "المُقيمة"، في مقابل جماعات البدو الرحل [المترجم].

(٦١) كثير من هؤلاء العبيد أصبحوا أمراء للجند وقادة عسكريين وأصحاب إقطاعات، بل شكّلوا في الأندلس مثلاً طبقة اجتماعية تشبه طبقة المماليك الأتراك في المشرق الإسلامي، وحتى الجواري كان بعضهن يصل إلى مراتب اجتماعية سامية بتبعيتهن للملوك والأمراء وعلية القوم الذين كانوا يشترونهن [المترجم].

خدمات لهذه التجارة طويلة المسافات. وكان سبي العبيد نفسه يولّد مزيداً من السبي، وكانت شعوب السهل البدوية الأخرى، مثل البجناك تعيش في رخاء على قنص الأساطيل الصغيرة عند النقاط الضيقة على الأنهار التي كان يسهل عليهم فيها الهجوم من الشاطئ، أو عند الشلالات التي تجبر القوافل على النزول من السفن ونقل السلع إلى سفن أخرى. فلم تكن التجارة والحرب إلا وجهين لعملة واحدة، كما رأينا في حالة إمبراطورية تشولا، وكما سنرى كثيراً في هذا الكتاب، بل إن دولة روسيا الكييفية نشأت أصلاً لتلبية ضرورة تنظيم هذين النشاطين المتكاملين.

يذكر نونان عدداً من مخابئ الدراهم الفضية الإسلامية، اكتشفت في أجزاء مختلفة من أراضي روسيا على طول نهري الفولغا والدنيبر، ترجع بالدرجة الأولى إلى ما بين العامين ٨٠٠ و٨٤٠، واكتشافات مماثلة في منطقة شرق البلطيق ترجع إلى الفترة نفسها[٧١]. وتزداد الاكتشافات الإجمالية بشدة من أقل من ثلاثمئة درهم إبان العقد الأول من القرن التاسع إلى أكثر من ألف وسبعمائة وخمسين درهما إبان العقد الرابع من القرن نفسه، بإجمالي أكثر من أربعة آلاف وسبعمائة وعشرين درهماً، تشكل اكتشافات البلطيق زهاء ٣٦٪ منها. وعلى ذلك، فإن واحدة على الأقل من كل ثلاث عملات إسلامية دخلت الأراضي الروسية انتهى بها المطاف في منطقة البلطيق، إذ لم يكن هناك إمكانية لانتقال العملات إلى البلطيق دون عبور روسيا. وكانت استاريا لادوجا المركز الذي جرت فيه مبادلة الدراهم بالسلع الغربية، وكان التجار البولنديون وغيرهم من السلاف الغربيين هم الذين تولوا هذا العمل، وكان السويديون هم الوحيدون الذين خاطروا بالدخول أبعد من هذه النقطة في داخل روسيا للحصول على الدراهم بطريقة مباشرة.

ثم يتقصى نونان السؤال: لماذا بدأت التجارة في الفضة الإسلامية مع منعطف القرن التاسع تقريباً فقط، وليس بعد تأسيس الخلافة مباشرة؟[٧٢] ويدفع بأن السبب وراء ذلك كان "حرب المئة عام" بين العرب الأمويين والخزر على السيادة على القوقاز، تلك المنطقة الجبلية بين البحرين الأسود وقزوين. وفي هذا الصراع، امتلك العرب قوة كافية لهزيمة الجيوش الخزرية في الميدان، بينما افتقروا إلى الموارد اللازمة

للحفاظ على احتلال أراضي الخزر بعد قهرهم في المعارك. وقد أدرك العباسيون ذلك، فعقدوا معهم سلاماً أوقف الأعمال العدائية أخيراً مع نهاية القرن الثامن. وقد مهّد ذلك الطريق لتجارة مفيدة للطرفين، وغدت عاصمة الخزر في اتل Itil على مصب نهر الفولغا على بحر قزوين محطة تجارية كبرى للتجار من كل الأديان.

أدرك الخزر الحاجة إلى التخلي عن الشامانية واعتناق "دين كتابي"، لكنهم ترددوا في اعتناق الإسلام أو المسيحية الأرثوذكسية خوفاً من الوقوع تحت هيمنة أي من القوتين العظميين المجاورتين- الخلافة الإسلامية وبيزنطة- ما اضطرهم إلى الاختيار المفاجئ لليهودية دونهما، كما رأينا في الفصل السابق. لكن ممارسة اليهودية اقتصرت على ما يبدو على الخاقان[٦٢] والنخبة الحاكمة، واعتنق الشعب معتقدات أخرى متنوعة. كان الروس في بادئ الأمر خاضعين للخزر، حتى أنهم كانوا يخدمونهم كمرتزقة. وتدريجياً بدأوا ينتزعون منهم السيطرة على القبائل السلافية ويحصلون على أرباح كبيرة من تجارة الشمال-الجنوب، ما عزز تدفق الفضة إلى البلطيق والغرب. ثمة دولة تركية أخرى من بدو السهل السابقين انخرطت في جمع الجزية في شكل الفراء والعبيد ومبادلتها بالفضة، وهي دولة بلغار الفولغا، وعاصمتها في بلغاريا الكبرى Great Bulgar في الفولغا الأوسط، التي اعتنقت الإسلام وكانت منافساً آخر للروس والخزر. وبفضل موقع هذه الدولة في وسط امتدادات الفولغا، تمكّنت من جمع ثروة كبيرة من المكوس، وكذلك الجزية التي كانت تجمعها.

وفي العام ٩٢٢، أوفد الخليفة في بغداد سفارة إلى عاصمة البلغار استجابة لطلب لما يمكن أن يسمى اليوم "مساعدة فنية" في إقامة دولة إسلامية. وكان من أعضاء الوفد الدبلوماسي العباسي ابن فضلان الذي أصبحت رواية رحلته إلى الأراضي البعيدة عملاً كلاسيكياً في مجال ملاحظة ثقافة لثقافة أخرى أو اللقاء بين الثقافات[٦٣].

---

(٦٢) الخاقان Khagan هو لقب الإمبراطور في اللغات المغولية والتركية، والدولة التي يحكمها تسمى "خاقانية" [المترجم].

(٦٣) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، وكتابه يسمى "رسالة ابن فضلان"، يصف فيه الشعوب التي قطنت بلاد جورجيا وروسيا والبلاد الاسكندينافية (رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٩) [المترجم].

قابل ابن فضلان ما يبدو أنهم جماعة من الفايكنغ في عاصمة البلغار، من الواضح أنه أعجب بهم واشمئز منهم في الوقت ذاته. فقد أعجب بقوامهم العملاق الذي قال فيه أنهم "في طول النخيل"، ولاحظ أن كل رجل منهم كان مسلحاً بأسلحة لا تفارقه أبداً. وقال فيهم إنهم مغرمون بالتجارة المربحة ويتضرعون إلى أوثان خشبية لآلهتهم من أجل نجاح تجارتهم. وكانت ثروتهم كبيرة، وكانوا يزينون زوجاتهم بقلادة لكل عشرة آلاف درهم يربحونها، وكان الكثير من نسائهم يرتدين حول أعناقهن الكثير من هذه الرموز الدالة على النجاح التجاري. فيما صدمت ابن فضلان قلة نظافتهم، وكذلك شربهم لكميات كبيرة من الكحول وممارستهم الفسوق علناً مع جواريهم اللاتي كانوا يمتلكونهن بأعداد كبيرة. وذكر ابن فضلان أيضاً رواية مروعة- لكن مع الاستبعاد العلمي للتفاصيل التي يرفضها عالم الأنثروبولوجيا الحديث- لجنازة زعيم أُحرِق على سفينته مع محظيته المفضلة التي ضحوا بها بطريقة مرعبة كي ترافقه في الآخرة[٦٤].

ثمة كُتاب عرب آخرون، منهم الجغرافيان ابن خرداذبة وابن رسته[٦٥]، خلّفوا تسجيلات لخصائص الروس وطرق تجارتهم وممارساتهم الاجتماعية. ويقدم كرامرز

---

(٦٤) في رسالته، قال ابن فضلان في الروس "وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب. ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة (الجميلات) للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه ... ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه (أنجسه). وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعه إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي جانبه ففعل مثل فعل صاحبه .."، وقال في الدنمركيين: "كانوا يغتسلون في النهر، ويتخلصون من نفاياتهم خارج الأبواب .. ومع ذلك، لم يكونوا حقاً نظيفين، إلا بالمقارنة" يقصد مقارنة بقذارة الروس، وقال فيهم أيضاً "ويتألف مجتمع تريلبرغ غالباً من الرجال، وجميع النساء من الجواري، ولا توجد زوجات بين النساء. وينال الرجال من يشاؤون من النساء بحرية وكيفما يشاؤون" [المترجم].

(٦٥) أحمد بن عمر أبو علي بن رسته الأصفهاني (توفى نحو العام ٣٠٠ هجرية/٩١٢ ميلادية) جمع وصنف في العام ٢٩٠ هجرية كتاب "الأعلاق النفيسة"، وصف فيه الكثير من المدن والبلدان، يقع الكتاب في سبعة أجزاء، لم يبق منها إلا الجزء الأخير [المترجم].

Kramers قائمة بالسلع التي كان الروس يتاجرون فيها (تأسيساً على أعمال جغرافي عربي آخر هو المقدسي) وهي "فراء السمور والفراء الأبيض وفراء القاقم وفراء الثعالب والقنادس والأرانب البرية المرقطة والعنزات، وكذلك الشمع والسهام ولحاء شجر البتولا والقبعات ذات الفراء وصمغ السمك وأسنان السمك (وربما أنياب حيوان الفظ[٦٦]) والقندس والكهرمان وجلد الخيول المُصنّع والعسل والبندق والصقور والسيوف والدروع وخشب القيقب والماشية صغيرة وكبيرة الحجم"[٧٣]. ولاحظ ابن رسته تحديداً أنهم لم يكونوا يزاولون الزراعة، بل تعيشوا فقط على التجارة في العبيد والمنتجات التي كانوا ينتزعونها من السلاف والسكان المحليين الآخرين في مقابل الفضة من الأقاليم الإسلامية عبر وسطاء بلغار وخزر، وكذلك بطريقة مباشرة دون وسطاء. ولاحظ أيضاً أنهم كانوا يتظاهرون بأنهم مسيحيون إذا كان ذلك من شأنه أن يقلل الرسوم والمكوس التي كانوا يدفعونها على البضائع العابرة.

كان السويديون في روسيا على اتصال وثيق بوطنهم. وموقع بيركا Birka القريب من استوكهولم الحديثة غني جداً بالمصنوعات اليدوية، وبخاصة العملات، من العالم الإسلامي، وصلت هناك في هذه الفترة، كما هي الحال في جزيرة غوتلند وموقع هديبي الدنمركي[٦٧]. ويذكر سبوفورد Spufford أنه قد عُثِر على أكثر من مئتي ألف عملة معدنية إسلامية في أوروبا الشمالية والوسطى والشرقية، منها ستون ألفاً في غوتلند وخمسة وأربعين ألفاً في بقية اسكندينافيا وعشرون ألفاً على الساحل البوميراني[٦٨] للبلطيق فيما يعرف الآن ببولندا، وغالبية العملات الباقية عثر عليها في روسيا نفسها[٧٤]. ويذكر سبوفورد أيضاً أن خمسة وثلاثين درهماً سُكّت في سمرقند بين العامين ٨٩٥ و٩١١ عُثِر عليها في مواقع تؤرخ إلى الفترة من العام ٩٢٥ إلى العام ٩٣٠ في مكان بعيد مثل يوركشاير[٧٥]. وكانت بيركا وهديبي النقطتين اللتين جرى فيهما تبادل الدراهم التي تحصلوا عليها من التجارة على طول الأنهار الروسية في مقابل

---

(٦٦) الفظ حيوان ثديي بحري شبيه بالفقمة [المترجم].

(٦٧) كانت هديبي Hedeby مستوطنة تجارية مهمة على الحدود الألمانية الدنمركية الشمالية في عصر الفايكنغ، ازدهرت من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر [المترجم].

(٦٨) بوميرانيا Bomerania منطقة تاريخية على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق [المترجم].

الحبوب والنبيذ والفخاريات والصناعات الحديدية مثل السيوف الفرنجية التي كانت أسلحة شائعة بين كل من الفايكنغ وشركائهم التجاريين الشرقيين. ويذهب سوير Sawyer إلى أن غوتلند كانت قاعدة للقرصانة، وليست مركزاً أو سوقاً تجارياً، لكن هذا الرأي يؤثر على توزيع العملات المعدنية بين المواقع وحسب، لكنه لا يؤثر على المكان الذي جاءت منه، وهو الشرق، سواء حدث ذلك من خلال التجارة أم الجزية أم النهب الصريح من جانب الروس[٧٦]. ويقدم عالما الآثار كلارك وأمبروسياني Clarke and Ambrosiani في مسحهما المدقق للأدلة في بلدات عصر الفايكنغ دعماً كافياً لربط التوسع المعاصر لمواقع مثل بيركا وهديبي وغوتلند وسلع القبور الأنيقة فيها بتدفق الفضة الإسلامية، مع أنهما لا يستشهدان ببولين مطلقاً[٧٧]. ويقدم المؤلفان وصفاً لما كان بالتأكيد صناعة مزدهرة استخدمت الإمدادات المحلية الوفيرة من قرون الإلكة والرنة والأيل وقرون حيوانات أخرى وعظامها، لصنع تشكيلة من الأدوات الشخصية كالأمشاط والدبابيس، التي توجد في مواقع تمتد من روسيا إلى أيرلندا. وكان الخرز والفخاريات والزجاج تنتج أيضاً في هديبي ومراكز أخرى.

لم تكن الدول الاسكندينافية وبولندا تمتلك عملات منفصلة إبان القرنين التاسع والعاشر، وربما كانت الدراهم منتشرة باعتبارها العملة المتداولة للعمليات اليومية، وأيضاً كمخزن للقيمة. وكثيراً ما تؤخذ العملات المعدنية التي قُطِّعت إلى أجزاء فيما يعرف باسم "الفضة المجزأة" دليلاً على ذلك. أما الكارولينجيون والأوتونيون الذين كانوا يُصْدِرون عملات فضية، فكانوا يعيدون سكّ الدراهم لذلك الغرض. وترتفع الدراهم المكتشفة في الاكتشافات الروسية والغربية كثيراً طوال أغلب القرن العاشر، قبل أن تجف تماماً بعد العام ٩٧٥ تقريباً. على أن أسباب هذا التوقف المفاجئ غير واضحة، وقد قُدِمت فرضيات مختلفة، منها استنزاف المناجم السامانية في آسيا الوسطى وأفغانستان. ربما يكمن التفسير الأكثر ترجيحاً في التحولات الجيوسياسية في عالم آسيا الوسطى من نوع تدمير الروس لكل من بلغار الفولغا والخزر في هذا الوقت تقريباً، وانهيار السلالة السامانية نفسها في نهاية القرن العاشر.

يتبنى هودجز ووايتهاوس Hodges and Whitehouse فرضية بولين بقوة، ويدفعان بأن الإصلاح النقدي الذي نفذه شارلمان في العام ٧٩٤ وإدخاله الدنير أو البنس الفضي "الثقيل" تطلبا كمية من الفضة لم تكن توفرها الموارد الغربية وحدها، وأن الدراهم الإسلامية التي كانوا يحصلون عليها من خلال التجارة في مراكز مثل هديبي ثم يعيدون سكّها هي التي لبت هذا الطلب[٧٨]. وهما بذلك يريان أن العرض النقدي الحقيقي المطلوب لدعم التوسع الاقتصادي لأوروبا الكارولينجية حدث كنتيجة غير مباشرة للتجارة الشرقية للفايكنغ مع العالم الإسلامي. لكن لا بد أن ننبّه إلى أن كارل موريسون Karl Morrison شكّك في احتمال أن تكون الفضة الإسلامية القادمة من اسكندينافيا قد لعبت هذا الدور الكبير دون أن تترك أدلة مباشرة من أي نوع. فلم يُعثَر على مخابئ لهذه العملات المعدنية غرب الراين ولا توجد أية إشارات إلى صهرها وإعادة سكها في دور سكّ العملة الكارولينجية[٧٩]. في حين يشير بولين إلى حقيقة مثيرة، وهي أن "يهودياً من الأندلس" وجد في ماينتس(٦٩) في العام ٩٦٥ دراهم سامانية سُكّت في سمرقند في العام ٩١٣[٨٠]. ويحدد سبوفورد هذا اليهودي بأنه إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي(٧٠) الذي أوفده أمير قرطبة في مهمة دبلوماسية، وينبّه إلى أن معظم هذه العملات المعدنية ربما كان أوتو الأكبر دوق سكسونيا يعيد سكّها في دار السكّ بماغديبرغ في راينلند، إن لم يكن في مكان أبعد إلى الشرق[٨١].

وسجل الرحالة الأندلسي أيضاً دهشته من وفرة وتنوع السلع الهندية المتوفرة في ماينتس. وهناك بالتأكيد أدلة قوية تؤكد أن اتصالات أوروبا الشمالية بالدول الإسلامية عن طريق أنهار الدنيبر والدون والفولغا كانت ذات تأثير إيجابي على النمو الاقتصادي الغربي إبان القرنين التاسع والعاشر، حيث كانت صادرات العبيد وغيرها تموّل تدفقات الفضة، ما ساعد في التحول النقدي monetization للاقتصاد الأوروبي الذي

---

(٦٩) ماينتس Mainz عاصمة ولاية راينلند بالاتينات في جنوب غرب ألمانيا وأكبر مدنها [المترجم].

(٧٠) نسبة إلى طرطوشة Tortosa المدينة الإسبانية الواقعة بمقاطعة ترغونة بكاتالونيا التي كانت جزءاً من الأندلس الإسلامية، وإبراهيم بن يعقوب طبيب وجغرافي ورجل دولة أندلسي، كلّفه الخليفة الأندلسي الحكم الثاني المستنصر بالله برحلة جغرافية إلى أوروبا الوسطى والشرقية لجمع معلومات عنها [المترجم].

كان وقتذاك آخذاً في الاتساع والتتجير[٧١]. وعلى ذلك، فقد كان بولين محقاً في القول بأن "روريك" كان حلقة الوصل بين المسلمين والفرنجة، وأسهم بذلك في بدء التحول الحاسم في مركز الجاذبية للاقتصاد الأوروبي بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط في اتجاه الشواطئ الشمالية، وستكون تلك إحدى السمات البارزة للتاريخ الاقتصادي الأوروبي على مدار الألفية اللاحقة. نختتم هذا الفصل برواية موجزة للتجارة والتقدم الاقتصادي في أوروبا الغربية خلال هذه الفترة المهمة.

اقتصاد أوروبا الغربية

ثمة جدل قديم حول طبيعة اقتصاد أوروبا الغربية إبان القرون الوسطى المبكرة[٧٢]. لكن من المسلمات، مع ذلك، أن العالم الكارولينجي كان أقل تمدناً بكثير من العالم الروماني أو العالم الميروفنجي المبكر. فيمكن وصف الإمبراطورية الرومانية بإيجاز بأنها كانت "تقوم على شبكة من ألفي مدينة تنفق عليها الضرائب على الإنتاج الزراعي"[٨٢]. وعاشت النخبة الحاكمة والدينية في المدن التي كانت كل واحدة منها مزودة بالبنية التحتية المادية الضرورية ممثلة في السوق أو الساحة العامة والمدرج والحمامات العامة والكاتدرائية (بعد اعتماد المسيحية إبان القرن الرابع)، فضلاً عن كل القوة العاملة اللازمة لتزويدها بأسباب الحياة المتمدنة. وكان الدخل اللازم للإنفاق على هذه البنية الفوقية الواسعة والجيش الدائم المكون من أكثر من ستمئة ألف جندي في الأزمان الإمبراطورية يأتي من الضرائب على القطاع الزراعي الذي تألف في الأساس من ضِياع كبيرة تعتمد على عمل العبيد، وكذلك الضرائب على التجارة. ونتيجة لغارات البرابرة والحروب، وفي المقام الأول نتيجة لتفشي الطاعون الدبلي في العام ٥٤٢ في عهد جوستنيان، حدث نقص في السكان بنسبة ٢٠-٢٥٪، جعل الإبقاء

---

(٧١) التتجير commercialization هو عملية أو دورة إدخال منتج أو طريقة إنتاج جديدة في السوق. وللكلمة أيضاً معنى مجازي، حيث تستخدم بمعنى تشييء وتسليع الأشياء التي لا تُشيّئ ولا تُسلَع [المترجم].

(٧٢) تغطي العصور الوسطى القرون من الخامس حتى الخامس عشر، وتصنف إلى القرون الوسطى المبكرة من القرن الخامس إلى العاشر، والعصور الوسطى المتوسطة من القرن العاشر إلى الثالث عشر، والعصور الوسطى المتأخرة التي تغطي القرنين الرابع عشر والخامس عشر [المترجم].

على كثير من هذه المدن عند الحد الأدنى الضروري أمراً مستحيلاً، ما أدى إلى نقض الطابع الحضري للمجتمع بالكامل تقريباً في الحقبة الكارولينجية.

فغدت الطبقة الحاكمة المدنية والعسكرية والدينية تقيم في الريف، في الضياع والأديرة والأبرشيات، ومعها حاشياتها المكوّنة من الأتباع والأنصار والخدم، وتحيط بها أسر الفلاحين التي كانت تعيل أنفسها من الأرض وتقدم الإيجارات والعمل الإلزامي في الأرض المرتبطين بها. وفي هذه الظروف يسهل تخيل، كما يذهب كثيرون، منهم بيرين، أن ذلك كان نظاماً قائماً على الاكتفاء الذاتي أو نظاماً "طبيعياً"، في مقابل اقتصاد التبادل أو الاقتصاد "النقدي". لكن البحوث الأخيرة التي أوجزها فيرهولست Verhulst تبرهن بشكل قاطع على خطأ هذا الافتراض[٨٣]. فالضياع جميعها كانت تبيع موادَّ غذائية وموادَّ أولية ومنتجات مصنعة في أسواق ومراكز إقليمية مختلفة، وتشتري في مقابل ذلك السلع التي لم تكن تنتجها، أو التي لم تكن تنتجها بدرجة كافية في حقولها وورشها. معنى ذلك أنه يمكن النظر إلى هذه الضياع باعتبارها "دولاً"، كما في النظرية القياسية للتجارة الدولية، تمتلك قوة العمل والأرض ورأس المال وجملة من تفضيلات المستهلكين، وتستخدم أسعار السوق لتعظيم قيمة إنتاجها واستهلاكها "بتصدير" السلع الفائضة و"استيراد" السلع الناقصة بأسعار السوق المحددة. كما أن المدن في ذاتها، وفقا للمنطق الاقتصادي الصارم، ليست لازمة ولا كافية لوجود اقتصاد السوق. فقد كان من الممكن إنتاج كميات كبيرة من الحبوب والنبيذ والأقمشة الصوفية والكتانية وكثير من المواد المصنعة وتوزيعها بهذه الطريقة.

كان الدور الكبير الذي لعبته الأديرة والأبرشيات الكبيرة في الاقتصاد إحدى السمات الأساسية للنظام الكارولينجي، وهو ما نتج عن تركز الأرض ورأس المال والعمل في أيديها بسبب الحماسة الدينية في ذلك العصر، التي أدت إلى تبرع الحكام وأقطاب المجتمع والمواطنين العاديين بهذه الأصول لها. وبفضل ما تمتعت به الأديرة من شبه احتكار للتعليم والكفاءة الإدارية، فقد كانت أيضاً في وضع يؤهلها لاستغلال هذه الموارد وإدارتها بطريقة فعالة. وإضافة إلى الدور البارز الذي لعبته المؤسسات الدينية في الإنتاج الزراعي والصناعي للاستخدام المدني، فقد أشرفت أيضاً على توفير

الجنود من صفوف السكان التابعين لها، وعلى صناعة الأسلحة على نطاق واسع لتجهيزهم. وبذلك لم تعد القوات المسلحة للنظام هي الجيش الدائم لدى الإمبراطورية الرومانية أو فرق الحرب لدى قبائل الفرنجة، وإنما التجنيد العفوي المفروض على كل ملاك الأراضي وعامة الناس ورجال الدين على حد سواء. وكان صهر الحديد وصنع الأسلحة والأدوات الزراعية يتم في ورش متخصصة، أو تؤديه قوة عاملة ملحقة بمناطق الإقطاعيين كجزء من التزاماتهم الإقطاعية. ليس غريباً- إذن- أن نعرف أن الدولة فرضت ضوابط صارمة على بيع الأسلحة، وأن هذه الضوابط كانت غير مؤثرة في أغلب الأحيان. ولذلك كانت أنصال السيوف الفرنجية عالية النوعية التي كان الأفضل من بينها يحمل علامة الصانع "أولفبيرت" Ulfberht، سلعة قيّمة في التجارة الدولية من إنجلترا إلى روسيا والعالم الإسلامي، على الرغم من هذا الحظر.

وكان صنع السلع المختلفة يعكس تخصصات إقليمية واضحة، مثل الأقمشة الفريزية[٧٣] التي كان هذا الشعب ينسجها ويبيعها، وكانت عالية النوعية لدرجة أن شارلمان أرسل شحنة منها هدية إلى هارون الرشيد. وثمة نوع خاص من الآنية الفخارية يعرف باسم آنية بادورف Badorf، من اسم قرية واقعة بين بون وكولونيا، كانت سلعة شهيرة أخرى متداولة في جميع أنحاء أوروبا، وقد عُثِر عليها في كثير من المواقع الأثرية، منها بيركا وهديبي. وكان الزجاج عالي النوعية هو الآخر ينتج ويباع على نطاق واسع.

ثمة ثلاثة تجديدات تقنية شهيرة أسهمت في رفع الإنتاج الزراعي، وهي المحراث الحديدي الثقيل الذي تجره مجموعات من الثيران أو الخيول، وطوق العنق للخيول، والدورة الزراعية ثلاثية المحاصيل. وأصبحت معالجة الحبوب تجري بطريقة أكفأ كثيراً في طواحين الهواء التي انتشر استخدامها إبان القرن الحادي عشر[٨٤]. وأدى النمو السكاني، بعد التعافي من دمار طاعون جوستنيان، وإزالة

(٧٣) الفريزيون Frisians جماعة عرقية جرمانية قطنت منطقة فريزيا Frisia بالأجزاء الساحلية من هولندا وألمانيا [المترجم].

مساحات شاسعة من الغابات، فضلاً عن هذه التجديدات الأساسية، إلى زيادات كبيرة في إنتاج الحبوب، مصحوبة بزيادة في زراعة الكرم والزيتون.

كانت التجارة بين المناطق في السلع الضخمة كالحبوب والملح والنبيذ يقوم بها تجار متخصصون ووكلاء للضياع الكبرى. فكان الملح ينتج على ساحل المحيط الأطلسي غرباً ويوزع من نانت(٧٤) بالمراكب على طول نهر اللوار، وكان ينتج أيضاً في مدينة ميتز Metz في الشمال الشرقي، وفي مدينة رايشنهول Reichenhall في ألمانيا التي كان يُشحَن منها بالسفن إلى باساو(٧٥)، ثم يرسل شرقاً على طول الدانوب إلى حدود الإمبراطورية على أيدي التجار البافاريين الذين كانوا معفيين من المكوس على المنتجات الأجنبية التي كانوا يرجعون بها في رحلة العودة[٨٥]. وكانت مدينة ماينتس مركزاً مهماً لجمع الحبوب من الأقاليم الألمانية الشرقية، وكذلك النبيذ، وإرسالهما شمالاً عبر الراين إلى السوق الرئيس في دورستاد(٧٦)، حيث يعاد تصديرها إلى اسكندينافيا وإنجلترا. وكان الفريزيون متعهدي هذه التجارة، وكانوا أيضاً يصدّرون الآنية الفخارية والزجاج بكميات كبيرة جداً إلى اسكندينافيا. كما كانت الأحجار المقطعة سلعة مهمة أخرى تُنتَج في ألمانيا ويبيعها الفريزيون في منطقة بحر الشمال والبلطيق.

كان النبيذ ينتج في ضياع دير سانت جيرمين دي بري Saint Germain des Pres بكميات تفوق متطلباته كثيراً، ولذلك كان الفائض يُشحَن على طول نهر السين إلى باريس للبيع في سوق سان دوني St Denis الذي كان سوق النبيذ الرئيس في أوروبا، حيث يشتريه التجار الفريزيون والأنجلوسكسونيون. وقد وصف جيليما Jellema دور الفريزيين في تجارة المسافات الطويلة بشمال أوروبا في ذلك الوقت بأنه يشبه دور الرابطة

---

(٧٤) نانت مدينة تقع في بريتاني بغرب فرنسا، تشتهر بمرسوم التسامح الديني الذي ارتبط باسمها الذي منح فيه ملك فرنسا هنري الرابع للبروتستانت الكالفينيين المعروفين بالهوغونوت حقوقهم الأساسية في فرنسا التي كانت لا تزال كاثوليكية وقتذاك [المترجم].

(٧٥) باساو Passau مدينة في بفاريا الدنيا بألمانيا [المترجم].

(٧٦) دورستاد Dorestad مدينة هولندية تقع عند مفترق نهري الراين والليك Lek، كانت في العصور الوسطى المبكرة أكبر مستوطنة في شمال غرب أوروبا [المترجم].

الهانزية[٧٧] بعد خمسة قرون تقريباً، وإن كان على نطاق أضيق. فقد كانوا متواجدين في المراكز التجارية من يورك ولندن في إنجلترا، إلى ماينتس وكولونيا على نهر الراين، وريغنسبرغ Regensburg على الدانوب، وبيركا وهديبي في اسكندينافيا[٨٦]. وكانوا البحارة البارزين في أوروبا قبل ظهور الفايكنغ، ذلك الشعب المؤثر الذي قطع البحار الشمالية ذهاباً وإياباً إبان القرون الوسطى وكأنها ممرات من اختراعهم (على أن ذروة استخدام هذه البحار حدثت لاحقاً إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر حين جعلتها الرابطة الهانزية الممرات الأساسية لتجارتها)[٨٧].

لم يكن الأنجلوسكسونيون يقلون عن الفريزيين في الطاقة والدافع التجاريين. وكانت إنجلترا في عهد الملك ألفريد وخلفائه دولة متماسكة وغنية تتاجر على نطاق واسع مع العالمين الكارولينجي والاسكندينافي. وضمت، إضافة إلى يورك ولندن، مركزاً تجارياً مهماً في هامويك Hamwic بالقرب من ساوثمبتون Southampton الحديثة، في مقابل ميناء كوينتوفيك Quentovic الكارولينجي على الجانب الآخر للقنال. وقد بدا إنتاج الأقمشة الصوفية وتصديرها في الظهور كسمة مميّزة للاقتصاد الإنجليزي من هذه الأزمان المبكرة. وكانت عملة الملوك الإنجليز، وبخاصة الملك أثلستان[٧٨]، مطلباً للكثيرين وتظهر في الاكتشافات الأثرية الباقية في جميع أنحاء الأقاليم الشمالية.

ليس مصادفة- إذن- أن تتمحور مناقشتنا للنشاط الاقتصادي في أوروبا الغربية حتى الآن بالدرجة الأولى حول منطقة البلطيق وبحر الشمال وجانبي الراين التي أصبحت الشرايين الرئيسة للتجارة، وهو الدور الذي لعبته مرسيليا ووادي الرون في الأزمان الرومانية والميروفنجية. لقد عرضنا حجتي بيرين وبولين حول انتقال مركز الجاذبية الاقتصادية من البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال. ومع ذلك فقد ظل البحر الأبيض المتوسط مرتبطاً بأوروبا الوسطى والشمالية، عبر ممرات جبال الألب وعلى

---

(٧٧) الرابطة الهانزية Hanseatic League أو هانزا Hansa اتحاد تجاري ودفاعي من الطوائف التجارية وأسواق المدن التابعة لها، سيطر على التجارة على طول ساحل أوروبا الشمالية، وامتد من بحر البلطيق إلى بحر الشمال والمناطق الداخلية في العصور الوسطى المتأخرة والعصر الحديث المبكر [المترجم].

(٧٨) إثلستان Athelstan (من نحو العام ٨٩٣/٨٩٥ إلى ٢٧ أكتوبر ٩٣٩) ملك السكسون الغربيين من العام ٩٢٤ إلى العام ٩٢٧ وملك الإنجليز من العام ٩٢٧ إلى العام ٩٣٩ [المترجم].

طول نهر الراين إلى الشمال، وعلى طول نهر الدانوب إلى الشرق. ويبدو أن محطات المكوس على هذه الممرات كانت تجمع عائدات كبيرة، بنسبة معتدلة قدرها ١٠٪ من قيمة السلع. ولذلك كانت إيطاليا طريقاً مهماً للتجارة مع الشرق البيزنطي والإسلامي.

كانت باري Bari ميناءً مهماً سيطر عليه العرب من العام ٨٤٠ إلى العام ٨٧٠. ولاحقاً أصبحت أمالفي على الساحل الغربي، ثم جنوى وبيزا مراكز تجارية مهمة. وبداية من القرن الثامن بدأت البندقية الواقعة في البحيرات على رأس الأدرياتيكي بالاستفادة من صلاتها بالإمبراطورية البيزنطية في تأكيد قدرها التاريخي باعتبارها حلقة الوصل بين الشرق والغرب. ومن بين المدن الداخلية، كانت بافيا Pavia، عاصمة لومبارد السابقة، مركزاً رئيساً، وكانت تجارتها كبيرة مع البندقية على طول نهر البو Po. ويقال إن الهجوم المجري الكبير على إيطاليا في العام ٩٢٤ أحرق أربعاً وأربعين كنيسة في بافيا، وهذا دليل على القدرات التدميرية للمجريين، لكنه بيّنة أيضاً على حجم المدينة وثرائها. وأخذت رافينا Ravenna تتراجع تدريجياً، وانخفض عدد سكان روما من مليون شخص في أوج الإمبراطورية الرومانية إلى ما بين ثلاثين وأربعين ألفاً. ومع ذلك، ظلت روما مركزاً مالياً، فضلاً عن أهميتها الدينية لكونّها مقر البابوية والمقصد الرئيس للحج الكثيف من جميع أنحاء العالم المسيحي. وفي الريف لعبت الضِياع الكبرى العامية والإكليروسية الدور نفسه الذي لعبته في فرنسا، حيث انتقلت الحرف والإنتاج الصناعي ضيق النطاق من المدن إلى ورش هذه الضِياع.

بإيجاز، تشير الأدلة بوضوح إلى أن التجارة والتتجير كانا سمتين أساسيتين لاقتصاد أوروبا الغربية الآخذ في التحول إلى الطابع النقدي في هذه الفترة. وثمة خاصية أخرى مهمة للاقتصاد الكارولينجي يجب ألا نتجاهلها، وهي الدور المستمر الذي لعبه فيه النهب المنظم ونزع ممتلكات الدول والقبائل المجاورة، وهو سلوك ارتبط عادة بالفايكنغ أو بدو السهل فقط. ويدفع رويتر Reuter بأن هذا السلوك كان عنصراً أساسياً في النظام العسكري الفرنجي، إذ كان ضرورياً لمكافأة حاشية المحاربين من الحكام وعِلية القوم[٨٨]. فكانوا ينتزعون مبالغ ضخمة من الأفار واللومبارديين والسكسونيين، ومبالغ أقل من الباسك والبريتون والفريزيين. وكانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية توفر

فرصاً للنهب على حساب القبائل السلافية أكثر من الغرب الأكثر استقراراً، وهو ما قد يفسر انحلال المنطقة الأخيرة إلى الفوضى الإقطاعية، فيما كانت المنطقة الأولى أكثر نجاحاً في الحفاظ على وحدة الأسر الحاكمة من خلال قدرتهم على أن يوفروا لأتباعهم فرصاً أكثر للنهب. وقد كان سبي الأفراد من القبائل السكسونية قبل اعتناقها المسيحية وبيعهم عبيداً، ومن السلاف بعد ذلك، جانباً مهماً من هذه العملية.

لا يزال التأثير الاقتصادي لغارات الفايكنغ على المناطق الساحلية للبلاد الواطئة[٧٩] وفرنسا وبريطانيا إبان القرنين الأخيرين من الألفية الأولى غامضاً، لكن الروايات التقليدية للمذابح الجماعية والإرهاب المفرط من جانب المفترسين الشماليين لم تعد تلقى تسليماً من المؤرخين المجددين. فنهب أديرة وموانئ مثل دورستاد أدى- بلا شك- إلى إيقاع الفوضى بالنشاط الاقتصادي، لكن ثمة أدلة كثيرة أيضاً على أنه لم يغير بدرجة ملحوظة الاتجاه العام الصاعد. وبعد أن تخلى الفريزيون عن دورستاد غير المنيعة على مصب الراين، نقلوا تجارتهم إلى أماكن مثل تيل Tiel وأوتريخت Utrecht كانت منيعة على المغيرين. ويبدو أن النمو السكاني لم تكبحه هذه الغارات كثيراً. ويشير لويس Lewis في واحد من أكثر البحوث اكتمالاً لهذه القضية إلى أن دور سكّ العملة في شمال فرنسا وغربها واصلت عملها، وأن تجارة المحيط الأطلسي لم تتراجع، بينما توسعت التجارة الألمانية شرق الراين[٨٩]. ورواية إبراهيم بن يعقوب، التي استشهدنا بها آنفاً، حول وفرة سلع الترف الشرقية في ماينتس في العام ٩٦٥ دليل جيد على ذلك. كما رأينا أيضاً في القسم السابق أن تدفق الفضة الإسلامية إلى أقاليم البلطيق ازداد على مدار القرن العاشر، ما حفز النمو الاقتصادي في الدولة البولندية التوسعية الجديدة نتيجة للتجارة مع كل من روسيا واسكندينافيا.

ربح الفايكنغ الكثير من غاراتهم المدمرة، إذ كان حكام دول أوروبا الغربية يرشونهم بكميات هائلة من المعدن النفيس في شكل عملات أو سبائك. لكن ماذا فعلوا بالثروة التي حصلوا عليها بهذه الطريقة؟ بالنسبة لدارس الاقتصاد يشكل هذا السؤال مثالاً "لمشكلة التحويل" المألوفة التي قد يكون من أشهر أمثلتها التعويضات الألمانية بعد

---

(٧٩) البلاد الواطئة هي هولندا، وقد سميت بذلك لأن أرضها الأكثر انخفاضاً في أوروبا [المترجم].

الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى جدل كبير بين ماينارد كينز وبيرتل أولين[٨٠]. مؤكد أنهم اكتنزوا بعض الثورة، وأنفقوا بعضها- بلا شك- على السلع والخدمات داخل أقاليم الفايكنغ أو خارجها. وفي الحالتين يؤدي "التحويل المالي" الأصلي في النهاية إلى "تحويل حقيقي" بالقدر نفسه في شكل فائض صادرات في جانب البلاد الضحية وفائض واردات مماثل في جانب أقاليم الفايكنغ، مع عودة توزيع أصول المعدن النفيس في النهاية إلى حالته الأولية. ويمكن أن تحدث إعادة توزيع للدخل الحقيقي، لكن لا يشترط أن يحدث أي انخفاض للدخل الحقيقي إجمالاً. بل إذا حدث في البداية عدم استغلال للموارد الاقتصادية، فإن النتيجة الإجمالية يمكن أن تكون توسعاً في الدخل الحقيقي الإجمالي.

وهذا التحليل لظاهرة الجزية الفايكنغية يمكن أن يساعد في تفسير لماذا لم يؤد نهب الفايكنغ بالضرورة إلى إلحاق أضرار بالاقتصاد الكلي لأوروبا الغربية على النحو المتوقع. فالرعب والدمار كان بمقدورهما تأكيد مصداقية تهديد الفايكنغ، وبعد ذلك يمكن لتسوية مالية متفق عليها أن تخفض "خسارة حمل السكون"[٨١] الصافية للإصابات والدمار المادي التاليين. وقد حلل سيمون كوبلند Simon Coupland مسألة تأثير الثروات التي كانت تدفع للفايكنغ على الاقتصاد الفرنجي الغربي في عهد شارل الأصلع من العام ٨٤٠ إلى العام ٨٧٧، وخَلُص إلى أنها كانت ناجحة عادة في منع

---

(٨٠) ظهرت "مشكلة التحويل" transfer problem إبان العقد الثالث من القرن العشرين عند مناقشة دفع ألمانيا للتعويضات المفروضة عليها بعد الحرب العالمية الأولى. وكان السؤال العملي هو عما إذا كانت دفعات التعويضات أكبر من قدرة ألمانيا على السداد. في البداية، اِعْتُقد أن المشكلة تتعلق بالموازنة فقط، بمعنى قدرة ألمانيا على خفض الامتصاص المحلي لتوفير دفعات التعويضات. فيما دفع ماينارد كينز Maynard Keynes بأن عبئاً ثانوياً سيظهر بسبب التغير في شروط التبادل التجاري نتيجة للتحول في أنماط الإنفاق عبر الدول. بينما رد عليه بيرتل أولين Bertil Ohlin بأنه تجاهل تأثير التحويل على الطلب في الدول المتلقية للتعويضات، وأنه ليس هناك احتمال لأن يكون للتحويل عبء ثانوي [المترجم].

(٨١) يشير مفهوم "خسارة حمل السكون"Deadweight Loss إلى التكاليف التي يتحملها المجتمع نتيجة لعدم كفاءة السوق، ويشير به الاقتصاديون إلى أي خلل في تخصيص الموارد. والحد الأقصى للأسعار (في شكل ضوابط الأسعار والإيجارات) والحد الأدنى للأسعار (في شكل قوانين الحد الأدنى للأجور) والضرائب تخلق جميعها خسائر من نوع حمل السكون. وإجمالاً تحدث خسارة حمل السكون حين لا يكون هناك توازن بين العرض والطلب [المترجم].

الأعمال العدائية والدمار، وأن فرض الضرائب لجمع المبالغ المطلوبة من الوجهاء والكنيسة والفلاحين لم يلحق أي ضرر أو اضطراب اقتصادي كبير، على خلاف الآراء الكثيرة في الأدبيات السابقة[٩٠].

ثمة عامل آخر ربما أدى في النهاية إلى خفض التكلفة وهو التحول من اللصوصية "التنافسية" إلى اللصوصية "الاحتكارية"، أو من اللصوصية "المتجولة" إلى اللصوصية "المستقرة" بتعبير مانكور أولسون Mancur Olson[٩١]. فغارات الفايكنغ التي كانت تنفذها مجموعات صغيرة مستقلة عن بعضها البعض لم توفر الحافز لتجنب قتل الإوزة الذي تفقس البيض الذهبي بإخراج المدينة الضعيفة أو المحطة التجارية من العمل تماماً. في حين أن تنفيذ مثل هذه الغارات بقيادة زعيم دولة كبيرة مثل الملك الدنمركي سفين فوركبيرد Svein Forkbeard أو ابنه نوت Knut، كما حدث في إنجلترا في أوائل القرن الحادي عشر، كان من شأنه أن يحل مشكلة العمل الجماعي من هذا النوع. ويشير لويس إلى أن هجمات الفايكنغ حدثت على موجتين، اتخذت الأولى شكل غارات منفصلة محدودة النطاق، فيما اتخذت الثانية شكل ابتزاز أكثر تنظيماً وحتى سيطرة إدارية، كما في حالة الغزو الدنمركي لإنجلترا في النصف الأول من القرن الحادي عشر[٩٢].

ثمة طريقة بديلة لرشوة الفايكنغ تشبه التكتيك الصيني القديم "باستخدام البرابرة لمحاربة البرابرة" وتتمثل في منحهم أراضي في المناطق الساحلية الإستراتيجية وتركهم يدافعون عنها ضد أبناء جلدتهم السابقين. ومن أبرز أمثلة هذه الطريقة المنطقة المجاورة لروان Rouen التي منحها شارل البسيط Charles the Simple إقطاعية لزعيم الفايكنغ رولو Rollo. وكانت هذه الإقطاعية أصل دوقية نورمندي التي قدر لها لاحقاً أن تلعب دوراً مهماً جداً في التاريخ الأوروبي والعالمي. ويبدو أن الاسكندينافيين اندمجوا سريعاً في اللغة والثقافة المحلية، لكن زعماءهم أظهروا قسوة أجدادهم وجرأتهم، إلى جانب قدرة حادة جداً على "بناء الدولة"، كما أثبتت الدوقية نفسها، وكما ثبت في إنجلترا وأيرلندا بعد الغزو النورمندي، وكذلك في جنوب إيطاليا وصقلية.

وبناءً على ما تقدم، فإن الإجابة عن السؤال: هل كان الفايكنغ قراصنة أم تجاراً أم مستوطنين؟ هي أنهم كانوا- بلا شك- يتحولون من دور إلى آخر بناءً على الفرص والظروف. والفايكنغ كمستعمرين ومستوطنين كانت إنجازاتهم عظيمة في شمال المحيط الأطلسي، فأقاموا مستوطنات على جزر أوركنيز Orkneys وفيروز Faeroes وآيسلندا وغرينلند، وكانت لهم محاولة رائعة، وإن كانت فاشلة، على يابسة أمريكا الشمالية. فقد أسهم الفايكنغ- بلا شك- أكثر من كل الشعوب الأخرى، ليس شعوب أوروبا الغربية وحدها، بل الشعوب على كامل اليابسة الأوراسية، في توسيع الآفاق الجغرافية لزمانهم.